رسالة حَيَّ بن يقظان
عند ابن طفيل

oberkandl.com

مقدمة المؤلف(٥)

والرسالة الثانية

الحمـد لله العظيم الأعظم القديم الأقدم العليـم الأعلم الحكيم الأحكم الرحيم الأرحم الكريم الأكـرم الحليم الأحلم ﴿الذى علم بالقلم. علم الإنسـان مالم يعلـم﴾(١) ﴿وكان فضل الله عليك عظيما﴾(٢) أحمده على فواضل النعماء وأشكره على تتابع الآلاء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شـريك له وأن محمدًا عبده ورسـوله صاحب الخلق الطاهر والمعجز الباهر والبرهان القاهر والسيف الشاهر صلوات الله عليه وسلامه وعلى آله وأصحابه أولى الهمم العظائم وذوى المناقب والمعالم وعلى جميع الصحابة والتابعين إلى يوم الدين وسلم تسليماً كثيرًا.

سألت أيها الأخ الكريم الصفى الحميم -منحك الله البقاء الأبدى وأسعدك السعد السرمدى- أن أبث إليك ما أمكننى بثه من أسرار الحكمة المشرقية(٣) التى ذكرها الشيخ (الإمام) الرئيس أبو على ابن سينا فأعلم، أن من أراد الحق الذى لا جمجمة فيه فعليه بطلبها والجد فى اقتنائها.

وصف الحالة التى شعر بها ابن طفيل.

ولقد حرك منى سؤالك خاطرًا شريفاً أفضى -لى- والحمد لله إلى مشاهدة حال لم أشهدها قبل وانتهـى بـى إلى مبلغ هو من الغرابة بحيث لا يصفه لسـان ولا يقوم به بيان لأنه من طور غير طورهما وعالم غير عالمهما. غير أن تلك الحال لمالها من البهجة والسـرور واللذة والحبور(٤) لا يستطيع من وصل إليها وانتهى إلى حد من حدودها أن يكتم أمرها أو يخفى سرها بل يعتريه من الطرب والنشـاط والمرح والانبسـاط ما يحمله على البوح بها مجملة دون تفصيل وإن كان ممن لم تحذقه العلوم قال فيها بغير تحصيل حتى إن بعضهم قال فى هذه الحال «سـبحانى ما أعظم شانى»(٥). وقال غيره «أنا الحق؟» وقال غيره «ليس فى الثوب إلا الله».

وأما الشيخ أبو حامد الغزالى (رحمة الله عليه) فقال متمثلًا عند وصوله إلى هذا الحال بهذا البيت:

---

(٥) ابن طفيل

(١) سورة العلق الآية ٤، ٥.

(٢) سورة النساء الآية ١١٣.

(٣) اختلف المشتشـرقون اختلافاً طويلًا فى تفسـير هذه الكلمة هل هو رديف لكلمة حكمة الإشـراق أو هى مقابل لكلمة حكمة المغاربة. ولو كانت نسـبة إلى الإشـراق، لكانت الحكمة الإشـراقية لا المغربية؟، فنحن نرجح أن تكون نسـبة إلى المشـرق، مقابلة لحكمة المغرب، وهى حكمة اليونان ومن إليهم ويرجح هذا أن لابن سـينا كتابًا فى المنطق يسمى «منطق المشارقة» يرد به على منطق أرسطو أى منطق المغاربة.

(٤) يريدبها الحالة التى يصل فيها العارف إلى الله وسنراها فى آخر الكتاب.

(٥) تنسب هذه الجملة لأبى يزيد البسطامى. ومثلها قول الحلاج «ما فى الجبة إلا الله» وقوله:

«أنا من أهوى ومن أهوى أنا — نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصـرتـه أبصـرتنى — وإذا أبصرتنى أبصرتنا»

وكلها ناشئة عن عقيدة وحدة الوجود

فكان ما كان ممن لست أذكره فظن خيرًا ولا تسألا عن الخبر.

وإنما أدبته المعارف وحذقته العلوم[1].

وانظر إلى قول أبى بكر بن الصائغ المتصل كلامه فى صفة الاتصال فإنه يقول «إذافهم المعنى المقصود من كتابه ذلك، ظهر عند ذلك أنه لا يمكن أن يكون معلوم من العلوم المتعاطاة فى رتبة وحصل متصوره يفهم ذلك المعنى فى رتبة يرى نفسه فيها مباينًا لجميع ما تقدم مع اعتقادات أخر ليست هيولانية وهى أجل من أن تنسب إلى الحياة الطبيعية بل هى من أحوال السعداء منزهة عن تركيب الحياة الطبيعية بل هى أحوال من أحوال السعداء خليقة أن يقال لها أحوال إلهية يهبها الله سبحانه وتعالى لمن يشاء من عباده.

وهذه الرتبة التى إليها أبو بكر ينتهى إليها بطريق العلم النظرى والبحث الفكرى. ولا شك أنه بلغها ولم يتخطها.

***

وأما الرتبة التى أشرنا إليها نحن أولاً فهى غيرها وإن كانت إياها بمعنى أنه لا ينكشف فيها أمر على خلاف ما انكشف فى هذه وإنما تغايرها بزيادة الوضوح ومشاهدتها بأمر لا نسميه قوة إلا على المجاز إذ لا نجد فى الألفاظ الجمهورية[2] ولا فى الاصطلاحات الخاصة أسماء تدل على الشىء الذى يشاهد به ذلك النوع من المشاهد. وهذه الحال التى ذكرناها وحركنا سؤالك إلى ذوق منها هى من جملة الأحوال التى نبه عليها الشيخ أبو على حيث يقول: «ثم إذا بلغت به الإرادة والرياضة حداً ما عنت له خلسات من اطلاع نور الحق لذيذة كأنها بروق تومض إليه ثم تخمد عنه ثم إنه تكثر عليه هذه الغواشى إذا أمعن فى الارتياض ثم إنه ليوغل فى ذلك حتى يغشاه فى غير الارتياض فكلما لمح شيئًا عاج منه إلى جنات القدس فيذكر من أمره أمرًا فيغشاه غاش فيكاد يرى الحق فى كل شىء. ثم إنه لتبلغ به الرياضة مبلغًا ينقلب له وقته سكينة». فيصير المخطوف مألوفًا والوميض شهابًا بينا وتحصل له مصارفه مستقرة كأنها صحبة مستمرة[3].. إلى ما وصفه من تدريج المراتب وانتهائها إلى النبل بأن يصير سره مرآة مجلوة يحاذى بها شطر الحق.، وحينئذ تدر عليه اللذات العلى. ويفرح بنفسه لما (يرى) بها من أثر الحق ويكون له فى هذه الرتبة نظر إلى الحق ونظر إلى نفسه وهو بعد متردد ثم إنه ليغيب عن نفسه فيلحظ جناب القدس فقط وإن لحظ نفسه فمن حيث هى

---

(١) هو استعمال غريب لكلمة حذق، يستعمله ابن طفيل كثيرًا. والشائع فى الاستعمال قولهم «حذق فى العلوم» لا حذقته العلوم

(٢) أى الألفاظ التى يستعملها الجمهور.

(٣) هذه هى عبارة ابن سينا. وكل المتصوفة من مسلمين وغير مسلمين مجمعون على وصولهم إلى هذه الحالة، حالة الكشف والاتصال بالله. مثل كلام محيى الدين بن العربى وابن الفارض والغزالى، وجلال الدين الرومى وغيرهم.

حق الوصول»[1].

التـــى وصفها إنما أراد بها أن تكون له ذوقًا لأعلى ســبيل الإدراك النظرى
يس وتقديم المقدمات وإنتـــاج النتائج وإن أردت مثالا يظهر لك به الفرق بين
ـ وإدراك سواها فتخيل حال من خلق مكفوف البصر إلا أنه جيد الفطرة قوى
ـفظ مسدد الخاطر فنشأ منذ كان فى بلدة من البلدان ومازال يتعرف أشخاص
من أنواع الحيوان والجمادات وسكك المدينة ومسالكها وديارها وأسواقها بما
دراكات الأخر حتى صار يمشـــى فى تلك المدينة بغير دليل ويعرف كل من
بأول وهلة.

ـلوان وحدها بشروح أسمائها وبعض حدود تدل عليها. ثم إنه بعد أن حصل
ـح بصره وحدثت له الرؤية البصرية فمشى فى تلك المدينة كلها وطاف بها
ـ اختلاف ما كان يعتقده ولا أنكر من أمرها شيئًا. وصادف الألوان على نحو
ـد التى كانت رسمت له بها غير أنه فى ذلك كله حدث له أمران عظيمان،
ـخروهما ..زيادة الوضوح والانبلاج واللـــذة العظيمة فحال الناظرين الذين لم
ـلايـــة هى حالة الأعمى الأولى والألوان التى فى هذه الحال معلومة بشـــروح
لأمور التى قال أبو بكر إنها أجل من أن تنســـب إلى الحياة الطبيعية يهبها
ـن عباده. وحال النظار اللذين وصلوا إلى طـــور الولاية ومنحهم الله تعالى ذلك
ـنه لا يسمى قوة إلا على سبيل المجاز، هى الحالة الثانية.

كلام إلى غير ما حركتنا إليه بسؤالك بعض خروج بحسب ما دعت الضرورة
ـقول أن مطلوبك لم يتعد أحد غرضين.

ـأل عما يراه أصحاب المشـــاهدة والأذواق والحضور فى طور الولاية فهذا مما
عنـــى حقيقة أمره فى كتاب ومتى حاول أحد ذلـــك وتكلفه بالقول أو الكتب
وصار من قبيل القسم الآخر النظرى لأنه إذا كسى الحروف والأصوات وقرب
ـلم يبق على ما كان عليها بوجـــه ولا حال واختلفت العبارات فيه اختلافًا
ـام قوم من الصراط المستقيم وظن بآخرين أن أقدامهم زلت وهى لم تزل وإنما
ـر لا نهاية له فى حضرة متسعة الأكناف. محيطة غير محاط بها[2].

ـثانـــى من الغرضين اللذين قلنا إن ســـؤالك لن يتعدى أحدهما هو أن تبتغى

سؤال.

[1] تعنى القصة المروية عن اجتماع ابن ســـينا وأبى ســـعيد بن أبى الخير. فقد روى أنهما اجتمعا
ـرق سأل تلاميذ ابن سينا شيخهم عن رأيه فى أبى سعيد فقال: «ما أعرفه يراه» وسأل تلاميذ
من ابن ســـينا فقال «ما أراه يعرفه» ويريدان بالمعرفة العلم عن طريق الفلســـفة والمنطق. ويريدان
بحصل للصوفيين عند بلوغهم الغاية.

التعريف بهذا الأمر على طريقة أهل النظر. وهذا -أكرمك الله بولايته- شيء يحتمل أن يوضع في الكتب وتتصرف به العبارات ولكنه أعدم من الكبريت الأحمر ولا سيما في هذا الصقع[1] الذي نحن فيه لأنه من الغرابة في حد لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد - ومن ظفر بشيء منه لم يكلم الناس إلا رمزًا فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت عنه. ولا تظنن أن الفلسفة التي وصلت إلينا في كتب أرسطو طاليس وأبي نصر[2] وفي كتاب الشفاء[3] تفي بهذا الغرض الذي أردته ولا أن أحدًا من أهل الأندلس كتب فيه شيئًا فيه كفاية وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم وبلغوا فيها مبلغًا رفيعًا ولم يقدروا على أكثر من ذلك. ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشيء من علم المنطق فنظروا فيه ولم يفض بهم إلى حقيقة الكمال فكان فيهم من قال:

برّح بي أن علوم الورى ... اثنان ما إن فيهما من مزيدْ
«حقيقة» يعجز تحصيلها ... و«باطل» تحصيله ما يفيدْ

ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظرًا وأقرب إلى الحقيقة. ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ولا أصح نظرًا ولا أصدق روية من أبي بكر بن الصائغ. غير أنه شغلته الدنيا حتى اخترمته المنية قبل ظهور خزائن علمه وبث خفايا حكمته. وأكثر ما يوجد له من التآليف إنما هي كاملة ومجزومة من أواخرها ككتابة «في النفس» و«تدبير المتوحد» وما كتبه في المنطق وعلم الطبيعة وأما كتبه الكاملة فهي كتب وجيزة ورسائل مختلسة وقد صرح هو نفسه بذلك وذكر أن المعنى المقصود برهانه في «رسالة الاتصال» ليس يعطيه ذلك القول عطاء بينا إلا بعد عسر واستكراه شديد، وأن ترتيب عبارته في بعض المواضع على غير الطريق الأكمل ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها. فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ونحن لم نلق شخصه.

وأما من كان معاصرًا له ممن لم يوصف بأنه في مثل درجته فلم نر له تأليفاً.

وأما من جاء بعدهم من المعاصرين لنا فهم بعد في حد التزايد أو الوقوف على غير كمال أو ممن لم تصل إلينا حقيقة أمره.

وأما ما وصل إلينا من كتب أبي نصر فأكثرها في المنطق وما ورد منها في الفلسفة فهي كثيرة الشكوك ..... فقد أثبت في كتابه «المنة الفاضلة» بقاء النفوس الشريرة بعد الموت في آلام لا نهاية لها وبقاء لا نهاية له ثم صرح في «السياسة المدنية» بأنها منحلة وسائرة إلى العدم وأنه

---

(١) يريد بلد الأندلس، وقد كانت فيها الفلسفة والتصوف نادرين.

(٢) هو الفارابي.

(٣) هو كتاب لابن سينا. قد طبع بعضه في الطبيعيات والإلهيات، ولم يطبع منه المنطق وهو أونه إلا هذه الأيام بمناسبة مهرجان ابن سينا.

لا بقاء إلا للنفوس الفاضلة الكاملة ثم وصف فى شـرح «كتاب الأخلاق» شـيئًا من أمر السعادة الإنسانية وأنها إنما أن تكون فى هذه الحياة التى فى هذه الدار ثم قال عقب ذلك كلاماً هذا معنـاه «وكل ما يذكر غير هـذا فهو هذيان وخرافات عجائز» فهذا قد أيأس الخلق جميعًا من رحمة الله تعالى وصير الفاضل والشرير فى رتبة واحدة إذ جعل مصير الكل إلى العدم وهذه زلة لا تقال وعثرة ليس بعدها جبر هذا مع ما صرح به من سوء معتقده فى النبوة وأنها بزعمه للقوة الخيالية خاصة، وتفضيلة الفلسفة عليها إلى أشياء ليس بنا حاجة إلى إيرادها.

***

وأما كتب «أرسـطوطاليس» فقد تكفل الشـيخ أبو على بالتعبير عما فيها وجرى على مذهبه وسلك طريق فلسفته فى «كتاب الشفاء» وصرح فى أول الكتاب بأن الحق عنده غير ذلك وأنه إنمـا ألف ذلك الكتاب على مذهب المشـائين وأن من أراد الحـق الذى لا جمجمة فيه فعليه بكتابه فى «الفلسفة المشرقية» ومن عنى بقراءة كتاب «الشفاء» وبقراءة كتب أرسطوطاليس ظهر له فى أكثر الأمور أنها تتفق وإن كان فى كتاب «الشفاء» أشياء لم تبلغ إلينا عن أرسطو. وإذا أخذ جميع ما تعطيه كتب أرسطو وكتاب «الشفاء» على ظاهره دون أن يتفطن لسره وباطنه لم يوصل به إلى الكمال حسبما نبه عليه الشيخ أبو على فى كتاب «الشفاء».

***

وأما كتب الشـيخ أبى حامد الغزالى فهى بحسب مخاطبته للجمهور تربط فى موضع وتحل فى آخر وتكفر بأشـياء تم تتحللها ثم إنه من جملة ما كفر به الفلاسـفة فى «كتاب التهافت» إنكارهم لحشـر الأجسـاد وإثباتهم الثـواب والعقاب للنفوس خاصة. ثم قـال فى أول كتاب «الميزان» «إن هذا الاعتقاد هو اعتقاد شيوخ الصوفية على القطع» ثم قال فى كتاب «المنقذ من الضـلال والمفصح بالأحوال». «إن اعتقاده هو كاعتقـاد الصوفية وأن أمره إنما وقف على ذلك بعد طول البحث» وفى كتبه من هذا النوع كثير يراه من تصفحها وأمعن النظر فيها. وقد اعتذر عن هذا الفعل فى آخر كتاب «ميزان العمل» حيث وصف أن الآراء ثلاثة أقسام:

١ – رأى يشارك فيه الجمهور فيما هم عليه.

٢ – ورأى يكون بحسب ما يخاطب به كل سائل ومسترشد.

٣ – ورأى أن يكون بين الإنسان وبين نفسه لا يطلع عليه إلا من هو شريكه فى اعتقاده.

ثم قال بعد ذلك «ولو لم يكن فى هذه إلا ما يشـكك فى اعتقادك الموروث لكفى بذلك نفعًا. فـإن من لم يشـك لم ينظر. ومن لم ينظر لم يبصر. ومـن لم يبصر بقى فى العمى والحيرة. ثم تمثل بهذا البيت:

خذ ما تراه ودع شيئًا سمعت به فى طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

فهذه صفة تعليمه وأكثره إنما هو رمز وإشارة لا ينتفع بها إلا من وقف عليها ببصيرة نفسه

أو بيت شـعر لإمام سمعها منه ثانيًا أو من كان معدا لفهمها فائق الفطرة فهو يكتفى بأيسـر إشـارة. وقـد ذكر فى «كتاب الجوهر» أن له كتبًا مضنونًا بهـا على أهلها وأنه ضمنها صريح الحق.

ولم يصـل إلى الأندلس فى علمنا منها شـىء بل وصلت كتب يزعـم بعض الناس أنها هى تلـك المضمون بهـا وليس الأمر كذلك وتلك الكتب هى كتاب «المعارف العقلية» وكتاب «النفخ والتسوية» و«مسائل مجموعة» وسواها.

وهذه الكتب وإن كانت فيها إشـارات فإنها لا تتضمن عظيم زيادة فى الكشـف على ما هو مبثوث فى كتبه المشهورة.

وقد يوجد فى كتاب «المقصد الأسنى» ما هو أغمض مما فى تلك. وقد صرح هو بأن كتاب «المقصد الأسنى» ليس مضنونا به فيلزم من ذلك أن هذه الكتب الواصلة ليست هى المضنون بها.

وقد توهم بعض المتأخرين من كلامه الواقع فى آخر «كتاب المشـكاة» أمرًا عظيما أوقعه فى مهـواة لا مخلـص له منها وهو قوله –بعد ذكر أصناف المحجوبين بالأنوار ثم انتقاله إلى ذكر الواصلـين. أنهم وقفـوا على أن هذا الموجود العظيم متصف بصفـة تنافى الوحدانية المحضة فأراد أن يلزمه من ذلك أنه يعتقد أن الأول الحق سبحانه فى ذاته كثرة ما تعالى الله عما يقول الظالمون علوًّا كبيرًا.

ولا شك عندنا فى أن الشيخ أبا حامد ممن سعد السعادة القصوى ووصل تلك المواصل الشريفة المقدسة. لكن كتبه المضنون بها المشتملة على عدم المكاشفة لم تصل إلينا.

* * *

ولم يتلخص لنا نحن الحق الذى انتهينا إليه وكان مبلغنا من العلم تتبع كلامه وكلام الشيخ أبى على وصرف بعضهما إلى بعض وإضافة ذلك إلى الآراء التى نبغت فى زماننا هذا ولهج بها قوم من منتحلى الفلسفة حق استقام لنا الحق أولا بطريق البحث والنظر ثم وجدنا منه الآن هذا الذوق اليسير بالمشاهدة وحينئذ رأينا أنفسنا أهلا لوضع كلام يؤثر عنا وتعين علينا أن تكون أيها السائل –أول من أتحفناه بما عندنا وأطلعناه على ما لدينا لصحيح ولائك وزكاء صفائك.

غـير أنا إذا ألقينـا إليك بغايات ما انتهينا إليه من ذلك من قبل أن نحكم مباديها معك لم يفدك شيئًا أكثر من أمر تقليدى مجمل، هذا إن أنت حسنت ظنك بنا بحسب المودة والمؤالفة لا بمعنى أنا نستحق أن يقبل قولنا.

ونحن لا نرضى لك هذه المنزلة ونحن لا نقنع لك بهذه الرتبة ولا نرضى لك إلا ما هو أعلى منهـا إذ هـى غير كفيلة بالنجاة فضلًا عن الفوز بأعلـى الدرجات وإنما نريد أن نحملك على المنسـالك التى قد تقدم عليها سـلوكنا ونسـبح بك فى البحر الذى قد عبرناه أولًا حتى يفضى بك إلى ما أفضى بنا إليه فتشـاهد من تلك ما شـاهدناه وتتحقق ببصيرة نفسك كل ما تحققناه

وتستغنى عن ربط معرفتك بما عرفناه. وهذا يحتاج إلى مقدار معلوم من الزمان غير يسير وفراغ من الشواغل وإقبال بالهمة كلها على هذا الفن. فإن صدق منك هذا العزم وصحت نيتك للتشمير فى هذا المطلب فستحمد عند الصباح مسراك وتنال بركة مسعاك وتكون قد أرضيت ربك وأرضاك وأنالك حيث تريده من أملك وتطمح إليه بهمتك وكليتك. وأرجو أن أصل من السلوك بك على أقصد الطريق وأمنها من الغوائل والآفات وإن عرضت الآن إلى لمحة يسيرة على سبيل التشويق والحث على دخول الطريق فأنا واصف لك «قصة حَىّ بن يقظان» «وأبسال وسلامان» اللذين سماهما الشيخ أبو على. ففى «قصصهم عبرة لأولى الألباب» و«ذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد».

***

ذكر سلفنا الصالح –رضى الله عنهم– أن جزيرة من جزر الهند التى تحت خط الاستواء وهى الجزيرة التى يتولد بها الإنسان من غير أم ولا أب وبها شجر يثمر نساء وهى التى ذكر المسعودى أنها جزيرة الواقواق لأن تلك الجزيرة أعدل بقاع الأرض هواء وأتمها لشروق النور الأعلى عليها استعداداً وإن كان ذلك على خلاف مايراه جمهور الفلاسفة وكبار الأطباء فإنهم يرون أن أعدل ما فى المعمورة الإقليم الرابع فإن كانوا قالوا ذلك لأنه صح عندهم أنه ليس على خط الاستواء عمارة لمانع من الموانع الأرضية فلقولهم إن الإقليم الرابع أعدل بقاع الأرض الباقية وجه وإن كانوا إنما أرادوا بذلك أن ما على خط الاستواء شديد الحرارة، كالذى يصرح به أكثرهم فهو خطأ يقوم البرهان على خلافه وذلك أنه قد تبرهن فى العلوم الطبيعية أنه لا سبب لتكون الحرارة إلا الحركة أو ملاقاة الأجسام الحارة والإضاءة وتبين فيها أيضًا أن الشمس بذاتها غير حارة ولا مكتفية بشىء من هذه الأمور المزاجية وقد تبين فيها أيضًا الأجسام التى تقبل الإضاءة أتم القبول هى الأجسام الصقيلة غير الشفافة ويليها فى قبول ذلك الأجسام الكثيفة غير الصقيلة. فأما الأجسام الشفافة التى لا شىء فيها من الكثافة فلا تقبل الضوء بوجه. وهذا وحده مما برهنه الشيخ أبو على وخاصة ولم يذكره من تقدمه. فإذا تم وصحت هذه المقدمات فاللازم عنها أن الشمس لا تسخن الأرض كما تسخن الأجسام الحارة أجسامًا أخر تماسها لأن الشمس فى ذاتها غير حارة ولا الأرض أيضًا تسخن بالحركة لأنها ساكنة ولا على حالة واحدة فى وقت شروق الشمس عليها وفى وقت مغيبها عنها. وأحوالها فى التسخين والتبريد ظاهرة الاختلاف للحس فى هذين الوقتين. ولا للشمس أيضاً تسخن الهواء أولاً ثم تسخن بعد ذلك الأرض بتوسط سخونة الهواء. وكيف يكون ذلك ونحن نجد أن ما قرب من الهواء من الأرض فى وقت الحر أسخن كثيرًا من الهواء الذى يبعد منه علوا فبقى أن تسخين الشمس للأرض إنما هو على سبيل الإضاءة لا غير فإن الحرارة تتبع الضوء أبدًا حتى أن الضوء إذا أفرط فى المرآة المقعرة أشعل ما حاذاها وقد ثبت فى علوم التعاليم بالبراهين

القطعية أن الشمس كروية الشكل وأن الأرض كذلك وأن الشمس أعظم من الأرض كثيرًا وأن الذى يستضىء من الأرض بالشمس أبدًا هو أعظم من نصفها وأن هذا النصف المضىء من الأرض فى كل وقت أشد ما يكون الضوء فى وسطه لأنه أبعد المواضع من الظلمة عند محيط الدائرة ولأنه يقابل من الشمس أجزاء أكثر وما قرب من المحيط كان أقل ضوءًا حتى ينتهى إلى الظلمة عند محيط الدائرة الذى ما أضاء موقعه من الأرض قط إنما يكون الموضع وسط دائرة الضياء إذا كانت الشمس على سمت رؤوس الساكنين فيه وحينئذ تكون الحرارة فى ذلك الموضع أشد ما يكون فإن كان الموضع مما تبعد الشمس فيه عن مسامته رؤوس أهله كان شديد البرودة جدا وإن كان مما تدوم فيه المسامتة كان شديد الحرارة وقد ثبت فى علم الهيئة أن بقاع الأرض التى على خط الاستواء لا تسامت الشمس رؤوس أهلها سوى مرتين فى العام عند حلولها برأس الحمل وعند حلولها برأس الميزان. وهى فى سائر العام ستة أشهر جنوبًا منهم وستة أشهر شمالاً منهم، فليس عندهم حر مفرط، ولا برد مفرط، وأحوالهم بسبب ذلك متشابهة.

وهذا القول يحتاج إلى بيان أكثر من هذا لا يليق بما نحن بسبيله وإنما نبهناك عليه لأنه من الأمور التى تشهد بصحة ما ذكر من تجويز تولد الإنسان بتلك البقعة من غير أم ولا أب فمنهم من بت الحكم وجزم القضية بأن «حَىَّ بن يقظان» من جملة من تكون فى تلك البقعة من غير أم ولا أب، ومنهم من أنكر ذلك وروى من أمره خبرًا نقصه عليك فقال: إنه كان بإزاء تلك الجزيرة جزيرة عظيمة متسعة الأكناف كثيرة الفوائد عامرة بالناس يملكها رجل منهم شديد الأنفة والغيرة وكانت له أخت. ذات جمال وحسن باهر فعضلها ومنعها من الأزواج إذ لم يجد لها كفؤًا. وكان له قريب يسمى يقظان فتزوجها سرًا على وجه جائز فى مذهبهم المشهور فى زمنهم ثم إنها حملت منه فوضعت طفلاً. فلما خافت أن يفتضح أمرها وينكشف سرها وضعته فى تابوت أحكمت زمه بعد أن أرته من الرضاع وخرجت به فى أول الليل فى جملة من خدمها وتفاتها إلى ساحل البحر وقلبها يحترق صبابة به وخوفًا عليه ثم إنها ودعته، وقالت:

«اللهم إنك قد خلقت هذا الطفل ولم يكن شيئًا مذكورًا ورزقته فى ظلمات الأحشاء وتكفلت به حتى تم واستوى وأنا قد سلمته إلى لطفك. ورجوت له فضلك خوفًا من هذا الملك الغشوم الجبار العنيد فكن له ولا تسلمه يا أرحم الراحمين»

ثم قذفت به فى اليم فضاعف ذلك جرى الماء بقوة المد فاحتمله من ليلته إلى ساحل الجزيرة الأخرى المتقدم ذكرها.

وكان المد يصل فى ذلك الوقت إلى موضع لا يصل إليه إلا بعد عام. فأدخله الماء بقوته إلى أجمة ملتفة الشجر عذبة القرية مستورة عن الرياح والمطر محجوبة عن الشمس تزور عنها إذا طلعت وتميل إذا غربت. ثم أخذ الماء فى النقص والجزر عن التابوت الذى فيه الطفل وبقى

التابوت فى ذلك الموضع وعلت الرمال بهبوب الرياح، وتراكمت بعد ذلك حتى سدت باب الأجمة على التابوت، وردمت مدخل الماء إلى تلك الأجمة. فكان المد لا ينتهى إليها. وكانت مسامير التابوت قد قلقت وألواحه قد اضطربت عند رمى الماء إياه فى تلك الأجمة فلما اشتد الجوع بذلك الطفل بكى واستغاث وعالج الحركة فوقع صوته فى أذن ظبية فقدت طلاها[1]. خرج من كناسه فحمله العقاب. فلما سمعت الصوت ظنته ولدها فتتبعت الصوت وهى تتخيل طلاها حتى وصلت إلى التابوت ففحصت عنه بأظلافها وهو ينوء ويئن من داخله حتى طار عن التابوت لوح من أعلاه. فحنت الظبية وحنت عليه ورئمت به وألقمته حلمتها وأروته لبنًا سائغًا. ومازالت تتعهده وتربية وتدفع عنه الأذى.

* * *

هذا ما كان من ابتداء أمره عند من ينكر التولد.

ونحن نصف هنا كيف تربى وكيف انتقل فى أحواله حتى بلغ المبلغ العظيم.

وأما الذين زعموا أنه تولد من الأرض فإنهم قالوا إن بطنًا من أرض الجزيرة تخمرت فيه طينة على مر السنين والأعوام حتى امتزج فيها الحار بالبارد والرطب باليابس امتزاج تكافؤ وتعادل فى القوى وكانت هذه الطينة المتخمرة كبيرة جدا وكان بعضها يفضل بعضًا فى اعتدال المزاج والتهيؤ لتكون الأمشاج. وكانت الوسط منها أعدل ما فيها وأتمه بمزاج الإنسان فتمخضت تلك الطينة وحدث فيها شبه نفاخات الغليان لشدة لزوجتها وحدث فى الوسط منها لزوجة ونفاخة صغيرة جدًا منقسمة بقسمين بينهما حجاب رقيق ممتلئة بجسم لطيف هوائى فى غاية الاعتدال اللائق به فتعلق به عند ذلك الروح الذى هو من أمر الله تعالى وتشبث به تشبثًا يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل إذ قد تبين أن هذا الروح دائم الفيضان من عند الله عز وجل وأنه بمنزلة نور الشمس الذى هو دائم الفيضان على العالم.

فمن الأجسام مالا يستضاء به وهو الهواء الشفاف جدًا ومنها ما يستضاء به بعض استضاءة وهى الأجسام الكثيفة غير الصقيلة وهذه تختلف فى قبول الضياء وتختلف بحسب ذلك ألوانها. ومنها ما يستضاء به غاية الاستضاءة وهى الأجسام الصقيلة كالمرآة ونحوها.

فإذا كانت هذه المرآة مقعرة على شكل مخصوص حدثت فيها النار لإفراط الضياء وكذلك الروح الذى هى من أمر الله تعالى فياض أبدًا على جميع الموجودات فمنها مالا يظهر أثره فيه لعدم الاستعداد وهو الجمادات التى لا حياة لها وهذه بمنزلة الهواء فى المثال المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه وهى أنواع النبات بحسب استعداداتها، وهذه بمنزلة الأجسام الكثيفة فى المثال المتقدم ومنها ما يظهر أثره فيه ظهورًا كثيرًا وهى أنواع الحيوان وهى الصقيلة فى المثال المتقدم.

---

(١) الطلا: ولد الظبى. والكناس: بيتهما.

ومن هذه الأجسام الصقيلة ما يزيد على شدة قبوله لضياء الشمس أنه يحكى صورة الشمس ومثالها وكذلك أيضًا من الحيوان ما يزيد على شدة قبوله للروح أنه يحكى الروح ويتصور بصورته وهو الإنسان خاصة وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: «إن الله خلق آدم على صورته»[1] فإن قويت فيه هذه الصورة حتى تتلاشى جميع الصور فى حقها وتبقى هى وحدها وتحرق سبحات نورها كل ما أدركته كانت حينئذ بمنزلة المرآة المنعكسة على نفسها المحرقة لسواها وهذا لا يكون إلا للأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين وهذا كله مبين فى مواضعه اللائقة به. فليرجع إلى تمام ما حكوه من وصف ذلك التخلق.

قالوا، فلما تعلق هذا الروح بتلك القرارة خضعت له جميع القوى وسجدت له وسخرت بأمر الله تعالى فى كمالها فتكون بإزاء تلك القرارة نفاخة أخرى منقسمة ثلاث قرارات بينها حجب لطيفة ومسالك نافذة وامتلأت بمثل ذلك البوائى الذى امتلأت منه القرارة الأولى إلا أنه ألطف منه.

وسكن فى هذه البطون الثلاثة المنقسمة من واحدة طائفة من تلك القوى التى خضعت له وتوكلت بحراستها والقيام عليها. وإنهاء ما يطرأ فيها من دقيق الأشياء وجليلها إلى الروح الأول المتعلق بالقرارة الأولى.

وتكون أيضاً بإزاء هذه القرارة من الجهة المقابلة للقرارة الثانية نفاخة ثالثة مملؤة جسمًا هوائيًا إلا أنه اغلظ من الأولين وسكن فى هذ القرارة فريق من تلك القوى الخاضعة وتوكلت بحفظها والقيام عليها فكانت هذه القرارة الأولى والثانية والثالثة أول ما تخلق من تلك الطينة المتخمرة الكبرى على الترتيب الذى ذكرناه.

واحتاج بعضها إلى بعض فالأولى منها حاجتها إلى الأخريين حاجة استخدام وتسخير والأخريان حاجتهما إلى الأولى حاجة المرؤوس إلى الرئيس والمدبّر إلى المدبر وكلاهما لما يتخلق بعدهما من الأعضاء رئيس لا مرؤوس.

وأحدهما وهو الثانى أتم رئاسة من الثالث فالأول منهما لما تعلق به الروح واشتعلت حرارته تشكل بشكل النار الصنوبرى وتشكل أيضاً الجسم الغليظ المحدق به على شكله وتكون لحماً صلباً وصار عليه غلاف صفاقى يحفظه.

وسمى العضو كله قلبًا واحتاج لما يتبع الحرارة من التحليل وإفناء الرطوبات إلى شىء يمده ويغذوه ويخلف ما تحلل منه على الدوام وإلا لم يطل بقاؤه واحتاج أيضًا إلى أن يحس بما يلائمه فيجتذبه وبما يخالفه فيدفعه. فتكفل له العضو الواحد بما فيه من القوى التى أصلها منه بحاجة الواحدة وتكفل له العضو الآخر بحاجته الأخرى.

---

(١) متفق عليه

وكان المتكفل بالحس هو «الدماغ» والمتكفل بالغذاء هو «الكبد» واحتاج كل واحد من هذين إليه في أن يمدهما بحرارته وبالقوى المخصوصة بهما التي أصلها منه فاقتضت بينهما لذلك كله مسالك وطرق بعضها أوسع من بعض بحسب ما تدعو إليه الضرورة فكانت الشرايين والعروق.

ثم مازالوا يصفون الخلقة كلها والأعضاء بجملتها على حسب ما وصفة الطبيعيون في خلقة الجنين في الرحم لم يغادروا من ذلك شيئًا إلى أن كمل خلقه وتمت أعضاؤه وحصل في حد خروج الجنين من البطن واستعانوا في وصف كمال ذلك بتلك الطينة الكبيرة وأنها كانت قد تهيأت لأن يتخلق منها كل ما يحتاج إليه في خلق الإنسان من الأغشية المجللة لجملة بدنه وغيرها فلما كمل انشقت عنه تلك الأغشية بشبه المخاض وتصدع باقي الطينة إذ كان قد لحقه الجفاف.

ثم استغاث ذلك الطفل عند فناء مادة غذائه واشتداد جوعه فأتيته «ظبية» فقدت طلاها.

ثم استوى ما وصفه هؤلاء بعد هذا الموضع وما وصفته الطائفة الأولى في معنى القريبة فقالوا جميعًا. إن الظبية التي تكفلت به وافقت خصبًا ومرعى أثيثا. فكثر لحمها ودر لبنها حتى قامت بغذاء ذلك الطفل أحسن قيام. وكانت معه لا تبعد عنه إلا لضرورة الرعي. وألف الطفل تلك الظبية حتى كان بحيث إذا هي أبطأت عنه اشتد بكاؤه فطارت إليه.

ولم يكن بتلك الجزيرة شيء من السباع العادية فتربى وتما واغتذى بلبن تلك الظبية إلى أن تم له حولان وتدرج في النشء وأثغر[1] فكان يتبع تلك الظبية وكانت هي ترفق به وترحمه وتحمله إلى مواضع فيه شجر مثمر فكانت تطعمه ما تساقط من ثمراتها الحلوة النضيجة، وما كان منها صلب القشرة كسرته له بظواحيتها ومتى عاد إلى اللبن أروته ومتى ظمىء إلى الماء أوردته ومتى ضحا[2] ظلته ومتى حضر[3] أدفأته وإذا جن الليل صرفته إلى مكانه الأول وجللته بنفسها وبريش كان هناك مما ملىء به التابوت أولاً في وقت وضع الطفل فيه. وكان في غدوهما ورواحهما قد ألفهما وبرب يمرح ويعيش ويبيت معهما حيث مبيتهما.

فمازال الطفل مع الظبي على تلك الحال يحكي نغمتها بصوته حتى لا يكاد يفرق بينهما وكذلك كان يحكي جميع ما يسمعه من أصوات الطير وأنواع سائر الحيوان محاكاة شديدة لقوة انفعاله لما يريده وأكثر ما كانت محاكاته لأصوات الظباء في الاستصراخ والاستئلاف والاستدعاء والاستدفاع إذ للحيوانات في هذه الأحوال المختلفة أصوات مختلفة. فألفته الوحوش وألفها ولم تنكره ولا أنكرها فلما ثبت في نفسه أمثلة الأشياء بعد مغيبها عن مشاهدته حدث له نزوع إلى بعضها وكراهية لبعض.

---

(١) أي ظهرت أسنانه.
(٢) أي تعرض للشمس
(٣) برد.

وكان فى ذلك كله ينظر إلى جميع الحيوانات فيراها كاسية بالأوبار والأشعار و(أنواع) الريش وكان يرى مالها من سرعة العدو وقوة البطش ومالها من الأسلحة المعدة لمدافعة من ينازعها مثل القرون والأنياب والحوافر والصياصى[1] والمخالب. ثم يرجع إلى نفسه فيرى ما به من العرى وعدم السلاح وضعف العدو، وقلة البطش عندما كانت تنازعة الوحوش أكل الثمرات وتستبد بها دونه وتغلبه عليها فلا يستطيع المدافعة عن نفسه ولا الفرار عن شىء منها وكان يرى أترابه من أولاد الظباء. قد نبتت لها قرون، بعد أن لم تكن وصارت قوية بعد ضعفها فى العدو. ولم ير لنفسه شيئًا من ذلك. فكان يفكر فى ذلك ولا يدرى ما سببه. وكان ينظر إلى ذوى العاهات والخلق الناقص فلا يجد لنفسه شبيهًا فيهم. وكان أيضاً ينظر إلى مخارج الفضول من سائر الحيوان فيرأها مستورة، أما مخرج أغلظ الفضلتين فبالاذناب وأما مخرج أرقمهما فبالأوبار وما أشبهما. ولأنها كانت أيضاً أخفى قضبانًا منه فكان ذلك كله يكر به ويسوءه. فلما طال همه فى ذلك كله وهو قد قارب سبعة أعوام ويئس من أن يكمل له ذلك وما قد أضر به نقصه اتخذ من أوراق الشجر العريضة شيئًا جعل بعضه خلفه وبعضه قدامه وعمل من الخواص والحلفاء (شبه) حزام على وسطه، علق به تلك الأوراق، فلم يلبث إلا يسيرًا حتى ذوى ذلك الورق وجف وتساقط عنه فمازال يتخذ غيره ويخصف بعضه ببعض طاقات مضاعفة وربما كان ذلك أطول لبقائه إلا أنه على كل حال قصير المدة واتخذ من أغصان الشجر عصيا سوى أطرافها وعدل متنها. وكان يهش بها على الوحوش المنازعة له فيحمل على الضعيف منها ويقاوم القوى منها فنبل بذلك قدرة عند نفسه بعض نبالة ورأى أن ليده فضلًا كثيرًا على أيديها إذ أمكن له بها ستر عورته واتخاذ العصى التى يدافع بها عن حوزته ما استغنى به عما أراده من الذنب والسلاح الطبيعى.

وفى خلال ذلك ترعرع وأربى على السبع سنين، وطال به العناء فى تجديد الأوراق التى كان يستتر بها.

فكانت نفسه عند ذلك تنازعة إلى اتخاذ ذنب من أذناب الوحوش الميتة ليعلقه على نفسه إلا أنه كان يرى أحياء الوحوش تتحامى ميتها وتفر عنه فلا يتأتى له الإقدام على ذلك الفعل إلى أن صادف فى بعض الأيام نسرًا ميتًا فهدى إلى نيل أمله منه واغتنم الفرصة إذ لم ير للوحوش عنه نفرة فأقدم عليه وقطع جناحيه وذنبه صحاحًا كما هى وفتح ريشها وسواها وسلخ عنه جلده، وفصله على قطعتين ربط إحداهما على ظهره والأخرى على سرته وما تحتها وعلق الذنب من خلفه وعلق الجناحين على عضديه فأكسبه ذلك سترًا ودفئًا ومهابة فى نفوس جميع الوحوش حتى كانت لا تنازعه ولا تعارضه.

---

(١) الصياصى: شوك الديك، وقرن البقرة والظباء والحصون وكل ما يتمنع به.

فصار لا يدنو إليه شيء منها سوى الظبية التى كانت أرضعته وربته فإنها لم تفارقه ولا فارقها إلى أن أسنت وضعفت فكان يرتاد بها المراعى الخصبة ويجتنى لها الثمرات الحلوة ويطعمها.

ومازال الهزال والضعف يستولى عليها ويتوالى إلى أن أدركها الموت فسكنت حركاتها بالجملة وتعطلت جميع أفعالها. فلما رآها الصبى على تلك الحال جزع جزعًا شديدًا وكادت نفسه تفيض أسفًا عليها. فكان يناديها بالصوت الذى كانت عادتها أن تجيبه عند سماعه ويصيح بأشد ما يقدر عليه فلا يرى لها عند ذلك حركة ولا تغيرًا.

فكانت ينظر إلى أذنيها وإلى عينيها فلا يرى بها آفة ظاهرة وكذلك كان ينظر إلى جميع أعضائها فلا يرى شيء منها آفة. فكانت يطمع أن يعثر على موضع الآفة فيزيلها عنها فترجع إلى ما كانت عليه، فلم يتأت له شيء من ذلك ولا استطاعه وكان الذى أرشده لهذا الرأى ما كان قد اعتبره فى نفسه قبل ذلك. لأنه كان يرى أنه أغمض عينيه أو حجبها بشيء لا يبصر شيئًا حتى يزول ذلك العائق وكذلك كان يرى أنه إذا أدخل أصبعيه فى أذنيه وسدهما لا يسمع شيئًا حتى يزول ذلك العارض وإذا أمسك أنفه بيده لا يشم من الروائح شيئًا حتى يفتح أنفه. فاعتقد من أجل ذلك أن جميع ما لها من الإدراكات والأفعال قد تكون لها عوائق تعوقها فإذ أزيلت تلك العوائق عادت الأفعال.

* * *

فلما نظر إلى جميع أعضائها الظاهرة ولم ير فيها آفة ظاهرة وكان يرى مع ذلك العطلة قد شملتها ولم يختص بها عضو دون عضو – وقع فى خاطره أن الآفة التى نزلت بها إنما هى فى عضو غائب عن العيان مستكن فى باطن الجسد وأن ذلك العضو لا يغنى عنه فى فعله شيء من هذه الأعضاء الظاهرة. فلما نزلت به الآفة عمت النضرة وشملت العطلة وطمع بأنه لو عثر على ذلك العضو وأزال عنه ما نزل به لاستقامت أحواله وفاض على سائر البدن نفعه، وعادت الأفعال إلى ما كانت عليه.

وكان قد شاهد قبل ذلك فى الأشباح الميتة من الوحوش وسواها أن جميع أعضائها مصمته لا تجويف فيها إلا القحف والصدر والبطن فوقع فى نفسه أن العضو الذى بتلك الصفة لن يعدو أحد هذه المواضع الثلاثة وكان يغلب على ظنة غلبة قوية أنه إنما هو فى الموضع المتوسط من هذه المواضع الثلاثة إذ كان قد استقر فى نفسه أن جميع الأعضاء محتاجة إليه وأن الواجب بحسب ذلك أن يكون مسكنه فى الوسط.

وكان أيضًا إذا رجع إلى ذاته شعر بمثل هذا العضو فى صدره ولأنه كان يعترض سائر أعضائه كاليد والرجل والأذن والأنف والعين ويقدر مفارقتها فيأتى له أنه كان يستغنى عنها وكان يقدر فى رأسه مثل ذلك ويظن أنه يستغنى عنه فإذا فكر فى الشيء الذى يجده فى صدره لم يأتِ له الاستغناء عنه طرفة عين.

وكذلك كان عند محاربته الوحوش أكثر ما كان يتقى من صياصيهم على صدره، لشعوره بالشيء الذى فيه.

فلما جزم بالحكم بأن العضو الذى نزلت به الآفة إنما هو فى صدرها أجمع على البحث عليه والتنقير عنه لعله يظفر به ويرى آفته فيزيلها. ثم إنه خاف أن يكون نفس فعله هذا أعظم من الآفة التى نزلت بها أولاً فيكون سعيه عليها.

ثم إنه فكر هل رأى من الوحوش وسواها من صار فى مثل تلك الحال ثم عاد إلى مثل حاله الأول، فلم يجد شيئًا فحصل له من ذلك اليأس من رجوعها إلى حالها الأول إن هو تركها وبقى له رجاء فى رجوعها إلى تلك الحال إن هو وجد ذلك العضو وأزال الآفه عنه.

فعزم على شق صدرها وتفتيش ما فيه فاتخذ من كسور الأحجار الصلدة وشقوق القصب اليابسة أشباه السكاكين وشق بها بين أضلاعها حتى قطع اللحم الذى بين الأضلاع وأفضى إلى الحجاب المستبطن للأضلاع فرآه قوياً فقوى ظنه بأن مثل ذلك الحجاب لا يكون إلا لمثل ذلك العضو. وطمع بأنه إذا تجاوزه ألفى مطلوبه، فحاول شقه فصعب عليه لعدم الآلات ولأنها لم تكن إلا من الحجارة والقصب، فاستجدها ثانية واستحدها وتلطف فى خرق الحجاب حتى انخرق له فأفضى إلى الرئة فظن أولاً أنها مطلوبه فمازال يقلبها ويطلب موضع الآفة بها.

وكان أولا إنما وجد منها نصفها الذى هو فى الجانب الواحد، فلمارآها مائلة إلى جهة واحدة وكان قد اعتقد أن ذلك العضو لا يكون إلا فى الوسط فى عرض البدن كما هو فى الوسط فى طوله. فمازال يفتش فى وسط الصدر حتى ألفى «القلب» وهو مجلل بغشاء فى غاية القوة مربوط بمعاليق فى غاية الوثاقة والرئة مطيقة به من الجهة التى بدأ بالشق منها، فقال فى نفسه: «إن كان لهذا العضو من الجهة الأخرى مثل ماله من هذه الجهة فهو فى حقيقة الوسط ولا محالة أنه مطلوبى، لا سيما مع ما أرى له من حسن الوضع وجمال الشكل وقلة التشتت وقوة اللحم وأنه محجوب بمثل هذا الحجاب الذى لم أر مثله لشيء من الأعضاء».

فبحث عن الجانب الآخر من الصدر فوجد فيه الحجاب المستبطن للأضلاع ووجد الرئة على ما وجده من هذه الجهة. فحكم بأن ذلك العضو هو مطلوبه فحاول هتك حجابه وشق شغافة فبكد واستكراه ما قدر على ذلك بعد استفراغ مجهوده.

وجرد القلب فرآه مصمتًا من كل جهة فنظر هل يرى فيه آفة ظاهرة، فلم ير فيه شيئًا فشد عليه يده فتبين له أن فيه تجويفًا، فقال: «لعل مطلوبى الأقصى إنما هو فى داخل هذا العضو وأنا حتى الآن لم أصل إليه».

فشق عليه فألفى فيه تجويفين اثنين أحدهما من الجهة اليمنى والآخر من الجهة اليسرى والذى من الجهة اليمنى مملوء بعلق منعقد والذى من الجهة اليسرى خال لا شيء فيه. فقال: «لن يعدو مطلبى أن يكون مسكنه أحد هذين البيتين ثم قال: «أما هذا البيت الأيمن فلا أرى

فيه غير هذا الدم المنعقد. ولا شك أنه لم ينعقد حتى صار الجسد كله إلى هذا الحال» إذ كان قد شاهد أن الدماء كلها متى سالت وخرجت انعقدت وجمدت ولم يكن هذا إلا دما كسائر الدماء وأنا أرى أن هذا الدم موجود فى سائر الأعضاء لا يختص به عضو دون آخر. وأنا ليس مطلوبى شيئًا بهذه الصفة إنما مطلوبى الشىء الذى يختص به هذا الموضع الذى أجدنى لا أستغنى عنه طرفة عين وإليه كان انبعاثى من أول.

وأما هذا الدم فكم مرة جرحتنى الوحوش والحجارة فسال منى كثير منه فما ضرنى ذلك ولا أفقدنى شيئًا من أفعالى فهذا بيت ليس فيه مطلوبى. وأما هذا البيت الأيسر فأراه خاليًا لا شىء فيه وما أرى ذلك لباطل فإنى رأيت كل عضو من الأعضاء إنما هو لفعل يختص به فكيف يكون هذا البيت على ما شاهدت من شرفه باطلًا، ما أرى إلا أن مطلوبى كان فيه، فارتحل عنه وأخلاه، وعند ذلك طرأ على الجسد من العطلة ما طرأ ففقد الإدراك وعدم الحراك.

فلما رأى أن الساكن فى ذلك البيت قد ارتحل قبل انهدامه وتركه وهو بحاله تحقق أنه أحرى أن لا يعود إليه بعد أن حدث فيه من الخراب والتخريق ما حدث فصار عنده الجسد كله خسيسا لا قدر له بالإضافة إلى ذلك الشىء الذى اعتقد فى نفسه أنه يسكنه مدة ويرحل عنه بعد ذلك. فاقتصر على الفكرة فى ذلك الشىء ما هو وكيف هو؟ وما الذى ربطه بهذا الجسد؟ وإلى أين صار؟ ومن أى الأبواب خرج عند خروجه من الجسد؟ وما السبب الذى أزعجه إن كان خرج كارهًا؟ وما السبب الذى كرَّه إليه الجسد حتى فارقه إن كان خرج مختارا؟

وتشتت فكره فى ذلك كله وسلا عن ذلك الجسد وطرحه وعمل أن أمه التى عطفت عليه وأرضعته إنما كانت ذلك الشىء المرتحل وعنه كانت تصدر تلك الأفعال كلها لا هذا الجسد العاطل وأن هذا الجسد بجملته إنما هو كالآلة لذلك وبمنزلة العصا التى اتخذها هو لقتال الوحوش. فانتقلت علاقته عن الجسد إلى صاحب الجسد ومحركه لم يبق له شوق إلا إليه.

* * *

وفى خلال ذلك نتن ذلك الجسد وقامت منه روائح كريهة فزادت نفرته عنه وود أن ألاَّ يراه. ثم إنه سنح لنظره غرابان يقتتلان حتى صرع أحدهما الآخر ميتًا. ثم جعل الحى يبحث فى الأرض حتى حفر حفرة فوارى فيها ذلك الميت بالتراب. فقال فى نفسه: «ما أحسن ما صنع هذا الغراب فى مواراة جيفة صاحبه وإن كان أساء فى قتله إياه وأنا كنت أحق بالاهتداء إلى هذا الفعل بأمى»، فحفر حفرة وألقى جسد أمه، وحثا عليها التراب وبقى يتفكر فى ذلك الشىء المصرف للجسد ولا يدرى ما هو غير أنه كان ينظر إلى أشخاص الظباء كلها فيراها على شكل أمه وعلى صورتها فكان يغلب على ظنه أن كل واحد منها إنما يحركه ويصرفه شىء هو مثل الشىء الذى كان يحرك أمه ويصرفها، فكان يألف الظباء ويحن إليها لمكان ذلك الشبه.

وبقى على ذلك برهة من الزمان يتصفح أنواع الحيوان والنبات، ويطوف بساحل تلك

الجزيرة ويتطلب هل يرى أو يجد لنفسه شبيها حسبما يرى لكل واحد من أشخاص الحيوان والنبات أشباهًا كثيرة فلا يجد شيئًا من ذلك وكان يرى البحر قد أحدق بالجزيرة من كل جهة فيعتقد أنه ليس فى الوجود سوى جزيرته تلك.

واتفق فى بعض الأحيان أن انقدحت نار أجمة قلخ[1] على سبيل المحاكمة، فلما بصر بها رأى منظرًا هاله وخلقا لم يعتده قبل فوقف يتعجب منها مليا وما يزال يدنو منها شيئًا فشيئًا فرأى ما للنار من الضوء الثاقب والفعل الغائب حتى لا تعلق بشىء إلا أتت عليه وأحالته إلى نفسها فحمله العجب بها وبما ركب الله تعالى فى طباعه من الجراءة والقوة على أن يمد يده إليها وأراد أن يأخذ منها شيئاً، فلما باشرها أحرقت يده فلم يستطع القبض عليها فاهتدى إلى أن يأخذ قبسًا لم تستول النار على جميعه فأخذ بطرفه السليم والنار فى طرفه الآخر فتأتى له ذلك وحمله إلى موضعه الذى كان يأوى إليه وكان قد خلافى جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك.

ثم مازال يمد تلك النار بالحشيش والحطب الجزل ويتعهدها ليلاً ونهارًا استحسانًا لها وتعجبا منها. وكان يزيد أنسه بها ليلا لأنها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفء فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التى لديه. وكان دائمًا يراها تتحرك إلى جهة فوق وتطلب العفو فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التى كان يشاهدها.

وكان يختبر قوتها فى جميع الأشياء بأن يلقيها فيها، فيراها مستولية عليها إما بسرعة وإما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذى كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه.

وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شىء من أصناف الحيوانات البحرية – كان قد ألقاه البحر إلى ساحله– فلما أنضجت ذلك الحيوان وسطع قتاره[2] تحركت شهوته إليه فأكل منه شيئًا فاستطابه فاعتاد بذلك أكل اللحم فصرف الحيلة فى صيد البر والبحر، حتى مهر فى ذلك.

وزادت محبته للنار إذ تأتى له بها من وجوه الأغتذاء الطيب شىء لم يأت له قبل ذلك فلما اشتد شغفه بها لما رأى من حسن آثارها وقوة اقتدارها وقع فى نفسه أن الشىء الذى ارتحل من قلب أمه الظبية التى أنشأته كان من جوهر هذا الموجود أو من شىء يجانسه. وأكد ذلك فى ظنه ما كان يراه من حرارة الحيوان طول مدة حياته وبرودته من بعد موته وكل هذا دائم لا يختل وما كان يجده فى نفسه من شدة الحرارة عند صدره بإزاء الموضع الذى كان قد شق عليه من الظبية فوقع فى نفسه أنه لو أخذ حيواناً حيًّا وشق قلبه ونظر إلى ذلك التجويف الذى صادفه خاليًا عندما شق عليه فى أمه الظبية لرآه فى هذا الحيوان وهو مملوء بذلك الشىء الساكن فيه، وتحقق هل هو من جوهر النار؟ وهل فيه شىء من الضوء والحرارة أم لا؟

---

(١) القلخ: القصب الأجوف.

(٢) القتار: رائحة الشواء

فعمد إلى بعض الوحوش واستوثق منه كتافًا وشقه على الصفة التى شق بها الظبية حتى وصل إلى القلب فقصد أولاً الجهة اليسرى منه وشقها فرأى ذلك الفراغ مملوءًا بهواء بخارى يشبه الضباب الأبيض فأدخل أصبعه فيه فوجده من الحرارة فى حد كاد يحرقه ومات الحيوان ذلك على الفور.

فصح عنده أن ذلك البخار الحار هو الذى يحرك هذا الحيوان وأن فى كل شخص من أشخاص الحيوانات مثل ذلك ومتى انفصل عن الحيوان مات.

ثم تحركت فى نفسه الشهوة للبحث عن سائر أعضاء الحيوان وترتيبها وأوضاعها وكمياتها وكيفية ارتباط بعضها ببعض وكيف تستمد من هذا البخار الحار حتى تستمر لها الحياة به وكيف بقاء هذا البخار المدة التى يبقى ومن أين يستمد وكيف لا تنفذ حرارته؟ فتتبع ذلك كله بتشريح الحيوانات الأحياء والأموات ولم يزل ينعم النظر فيها ويجيد الفكرة حتى بلغ فى ذلك كله مبلغ كبار الطبيعيين فتبين له أن كل شخص من أشخاص الحيوان وإن كان كثيرا بأعضائه وتفنن حواسه وحركاته فإنه واحد بذلك الروح الذى مبدؤه من قرار واحد وانقسامه فى سائر الأعضاء منبعث منه.

وإن جميع الأعضاء إنما هى خادمة له أو مؤدية عنه. وإن منزلة ذلك الروح فى تصريف الجسد كمنزلة من يحارب الأعداء بالسلاح التام ويصيد جميع صيد البحر والبر فيعد لكل جنس آلة يصيده بها والتى يحارب بها تنقسم إلى ما يدفع به نكاية غيره وإلى ما ينكس بها غيره.

وكذلك آلات الصيد تنقسم إلى ما يصلح لحيوان البحر وإلى ما يصلح لحيوان البر، وكذلك الأشياء التى يشرح بها تنقسم إلى ما يصلح للشق وإلى ما يصلح للكسر وإلى ما يصلح للثقب. والبدن واحد وهو يصرف ذلك أنحاء من التصريف بحسب ما تصلح له كل آلة وبحسب الغايات التى تلتمس بذلك التصريف.

كذلك - ذلك الروح الحيوانى واحد وإذا عمل بآلة العين كان فعله إبصارًا وإذا عمل بآلة الأنف كان فعله شما، وإذا عمل بآلة اللسان كان فعله ذوقًا، وإذا عمل بالجلد واللحم كان فعله لمسًا وإذا عمل بالعضو كان فعله حركة وإذا عمل بالكبد كان فعله غذاء واغتذاء.

ولكل واحد من هذه أعضاء تخدمه ولا يتم لشىء من هذه فعل إلا بما يصل إليها من ذلك الروح على الطريق التى تسمى عصبًا ومتى انقطعت تلك الطرق أو انسدت تعطل فعل ذلك العضو، وهذه الأعصاب إنما تستمد الروح من بطون الدماغ والدماغ يستمد الروح من القلب والدماغ فيه أرواح كثيرة لأنه موضع تتوزع فيه أقسام كثيرة فأى عضو عدم هذا الروح بسبب من الأسباب تعطل فعله وصار بمنزلة الآلة المطروحة التى لا يصرفها الفاعل ولا ينتفع بها. فإن خرج هذا الروح بجملته عن الجسد أو فنى أو تحلل بوجه من الوجوه تعطل الجسد كله. وصار إلى حالة الموت فانتهى به هذا النحو من النظر إلى هذا الحد من النظر على رأس ثلاثة

أسابيع من منشئه وذلك واحد وعشرون عامًا.

وفـي خلال هـذه المدة المذكورة تفنن في وجوه حيله واكتسـى بجلود الحيوانات التى كان يشرحها واحتذى بها واتخذ الخيوط من الأشعار ولحا قصب الختمية والخبازى والقنب وكل نبات ذى خيط.

وكان أصل اهتدائه إلى ذلك أنه أخذ من الحلفاء وعمل خطاطيف من الشوك القوى والقصب المحـدد على الحجارة واهتـدى إلى البناء بما رأى من فعل الخطاطيـف فاتخذ مخزناً وبيتاً لفضلة غذائه وحصن عليه بباب من القصب المربوط بعضه إلى بعض لئلا يصل إليه شـيء من الحيوانات عند مغيبه عن تلك الجهة في بعض شؤونه.

واسـتألف جوارح الطير ليسـتعين بها في الصيد واتخذ الدواجن لينتفع ببيضها وفراخها، واتخذ من صياصي البقر الوحشـية شـبه الأسـنة وركبها في القصب القوى وفي عصى الزان وغيرها واسـتعان في ذلك بالنار وبحروف الحجارة حتى صارت شبه الرماح واتخذ ترسه من جلود مضاعفة كل ذلك لما رأى من عدمه السلاح الطبيعي.

ولمـا رأى أن يـده تفي له بكل ما فاته من ذلك- وكان لا يقاومه شـيء من الحيوانات على اختـلاف أنواعهـا إلا أنها كانت تفر عنه فتعجزه هربـاً فكر في وجه الحيلة في ذلك فلم ير شيئا أنجح له من أن يتألف بعض الحيوانات الشديدة العدو ويحسن إليها بإعداد الغذاء التى يصلح لها حتى يتأتى له الركوب عليها ومطاردة سائر الأصناف بها. وكان بتلك الجزيرة خيل بريـة وحمر وحشـية فاتخذ منها ما يصلح له وراضها حتى كمـل له بها غرضه وعمل عليها من الشـرك والجلود أمثال الشكائم والسـروج فتأتى له بذلك ما أمله من طرد الحيوانات التى صعبت عليه الحيلة في أخذها وإنما تفنن في هذه الأمور كلها في وقت اشـتغاله بالتشـريح وشـهوته في وقوفه على خصائص أعضاء الحيوان وبماذا تختلف وذلك في المدة التى حددنا منتهاها بأحد وعشرين عاماً.

* * *

ثم إنه بعد ذلك أخذ في مآخذ أخر فتصفح جميع الأجسـام التى في عالم الكون والفسـاد[1] مـن الحيوانات على اختـلاف أنواعها والنبـات والمعادن وأصناف الحجـارة والتراب والماء والبخـار والثلـج والبرد والدخان والجليـد واللهيب والحر، فرأى لها أوصافـا كثيرة وأفعالاً مختلفة وحركات متفقة ومتضادة وأنعم النظر في ذلك وتثبت فرأى أنها تتفق ببعض الصفات وتختلف ببعض وأنها من الجهة التى تتفق بها واحدة ومن الجهة التى تختلف فيها متغايرة ومتكثرة، فكان تارة ينظر خصائص الأشـياء وما يتفرد به بعضها عن بعض فتكثر عنده كثرة

(١) الكون تحول الشيء من العدم إلى الوجود، والفساد تحول الشيء من الوجود إلى العدم.

تخرج عن الحصر وينتشر له الوجود انتشاراً لا يضبط.

وكانت تتكثر عنده أيضاً ذاته لأنه كان ينظر إلى اختلاف أعضائه وأن كل واحد منها منفرد بفعل وصفة تخصه وكان ينظر إلى كل عضو منها فيرى أنه يحتمل القسمة إلى أجزاء كثيرة جداً فيحكم على ذاته بالكثرة وكذلك على ذات كل شيء.

ثم كان يرجع إلى نظر آخر من طريق ثان فيرى أن أعضاءه وإن كانت كثيرة فهى متصلة كلها بعضها ببعض ولا انفصال بينها بوجه فهى فى حكم الواحد وأنها لا تختلف إلا بحسب اختلاف أفعالها وأن ذلك الاختلاف إنما هو بسبب ما يصل إليها من قوة الروح الحيوانى الذى انتهى إليه نظره أولاً وأن ذلك الروح واحد فى ذاته وهو أيضاً حقيقة الذات وسائر الأعضاء كلها كالآلات فكانت تتحد عنده ذاته بهذا الطريق.

ثم كان ينتقل إلى جميع أنواع الحيوان فيرى كل شخص منها واحداً بهذا النوع من النظر ثم كان ينظر إلى نوع منها كالظباء والخيل والحمير وأصناف الطير صنفا صنفا فكان يرى أشخاص كل نوع يشبه بعضه بعضا فى الأعضاء الظاهرة والباطنة والإدراكات والحركات والمنازع ولا يرى بينها اختلافاً إلا فى أشياء يسيرة بالإضافة إلى ما اتفقت فيه.

وكان يحكم بأن الروح الذى لجميع ذلك النوع شىء واحد وأنه يختلف إلا أنه انقسم على قلوب كثيرة وأنه لو أمكن أن يجمع جميع الذى افترق فى تلك القلوب منه ويجعل فى وعاء واحد لكان كله شيئاً واحداً بمنزلة ماء واحد أو شراب واحد يفرق على أوان كثيرة ثم يجمع بعد ذلك.

فهو فى حالتى تفريقه وجمعه شىء واحد وإنما عرض له التكثر بوجه ما ، فكان يرى النوع كله بهذا النظر واحدًا ويجعل كثرة أشخاصه بمنزلة كثرة أعضاء الشخص الواحد التى لم تكن كثيرة فى الحقيقة.

ثم كان يحضر أنواع الحيوان كلها فى نفسه ويتأملها فيراها تتفق فى أنها تحس وتغتذى وتتحرك بالإرادة إلى أى جهة شاءت وكان قد علم أن هذه الأفعال هى أخص أفعال الروح الحيوانى وأن سائر الأشياء التى تختلف بها بعد هذا الاتفاق ليست شديدة الاختصاص بالروح الحيوانى.

فظهر له بهذا التأمل أن الروح الحيوانى الذى لجميع جنس الحيوان واحد بالحقيقة وإن كان فيه اختلاف يسير اختص به نوع دون نوع بمنزلة ماء واحد مقسوم على أوان كثيرة بعضه أبرد من بعض وهو فى أصله واحد. وكل ما كان فى طبقة واحدة من البرودة فهو بمنزلة اختصاص ذلك الروح الحيوانى بنوع واحد وبعد ذلك فكما أن ذلك الماء كله واحد فكذلك الروح الحيوانى واحد وإن عرض له التكثر بوجه ما. فكان يرى جنس الحيوان كله واحداً بهذا النوع من النظر. ثم كان يرجع إلى أنواع النبات على اختلافها فيرى كل نوع منها تشبه أشخاصه بعضها بعضا فى الأغصان والورق والزهر والثمر والأفعال فكان يقيسها بالحيوان ويعلم أن لها شيئاً واحداً اشتركت فيه هو لها بمنزلة الروح للحيوان وأنها بذلك الشىء واحد.

وكذلك كان ينظر إلى جنس النبات كله فيحكم باتحاده بحسب ما يرأه من اتفاق فعله فى أنه يتغذى وينمو.

ثم كان يجمع فى نفسه جنس الحيوان وجنس النبات فيراهما جميعا متفقين فى الاغتذاء والنمو إلا أن الحيوان يزيد على النبات بفضل الحس والإدراك والتحرك وربما ظهر فى النبات شىء شبيه به مثل تحول وجوه الزهر إلى جهة الشمس وتحرك عروقه إلى جهة الغذاء وأشباه ذلك فظهر له بهذا التأمل أن النبات والحيوان شىء واحد بسبب شىء واحد مشترك بينهما هو فى أحدهما أتم وأكمل وفى الآخر قد عاقه عائق ما وأن ذلك بمنزلة ماء واحد قسم قسمين أحدهما جامد والآخر سيال فيتحد عنده النبات والحيوان.

ثم ينظر إلى الأجسام التى لا تحس ولا تتغذى ولا ينمو من الحجارة والتراب، والماء والهواء واللهب فيرى أنها أجسام مقدر لها طول وعرض وعمق، وانها لا تختلف إلا أن بعضها ذو لون وبعضها لا لون له وبعضها حار وبعضها بارد ونحو ذلك من الاختلافات.

وكان يرى أن الحار منها يصير بارداً والبارد (يصير) حاراً وكان يرى الماء يصير بخارا والبخار يصير ماء والأشياء المحترقة تصير جمراً ورماداً ولهيباً ودخاناً، والدخان إذا وافق فى صعوده قبة حجر انعقد فيه وصار بمنزلة سائر الأشياء الأرضية. فظهر له بهذا التأمل أن جميعها شىء واحد فى الحقيقة وإن لحقتها الكثرة بوجه عام فكذلك مثلما لحقت الكثرة للحيوان والنبات.

ثم ينظر إلى الشىء الذى اتحد عنده النبات والحيوان فيرى أنه جسم ما مثل هذه الأجسام له طول وعرض وعمق وهو إما حار وإما بارد كواحد من هذه الأجسام التى لا تحس ولا تتغذى، وإنما خالفها بأفعاله التى تظهر عنها بالآلات الحيوانية والنباتية لا غير، ولعل تلك الأفعال ليست ذاتية وإنما تسرى إليه من شىء آخر ولو سرت إلى هذه الأجسام الأخر لكانت مثله.

فكان ينظر إليه بذاته مجردا عن هذه الأفعال التى تظهر ببادئ الرأى أنها صادرة عنه فكان يرى أنه ليس إلا جسما من هذه الأجسام فيظهر له بهذا التأمل أن الأجسام كلها شىء واحد حيها وجمادها متحركها وساكنها إلا أنه يظهر أن لبعضها أفعالا بآلات ولا يدرى هل تلك الأفعال ذاتية لها أو سارية إليها من غيرها.

وكان فى هذه الحال لا يرى شيئاً غير الأجسام فكان بهذا الطريق يرى الوجود كله شيئاً واحداً وبالنظر الأول يرى الوجود كثرة لا تنحصر ولا تتناهى.

وبقى بحكم هذه الحالة مدة.

ثم إنه تأمل جميع الأجسام حيها وجمادها. وهى التى عنده تارة شىء واحد وتارة كثيرة كثرة لا نهاية لها فرأى أن كل واحد منها لا يخلو من أحد أمرين: إما أن يتحرك إلى الجهة العلو مثل الدخان واللهيب والهواء إذا حصل تحت الماء، وإما أن يتحرك إلى الجهة المضادة لتلك الجهة وهى جهة السفل مثل الماء وأجزاء الأرض وأجزاء الحيوان والنبات وأن كل جسم

من هذه الأجسام لن يعرى عن إحدى هاتين الحركتين وأنه لا يسكن إلا إذا منعه مانع يعوقه عن طريقه مثل الحجر النازل يصادف وجه الأرض صلباً فلا يمكنه أن يخرقه ولو مكنه ذلك لما انثنى عن حركته فيما يظهر ولذلك إذا رفعته وجدته يتحامل عليك بميله إلى الجهة السفل طالباً للنزول.

وكذلك الدخان فى صعوده لا يتثنى إلا أن يصادف قبة صلبة تحبسه فحينئذ ينعطف يميناً وشمالاً ثم إذا تخلص من تلك القبة خرق الهواء صاعداً لأن الهواء لا يمكنه أن يحبسه.

وكان يرى الهواء إذا ملىء به زق جلد وربط ثم غوص تحت الماء طلب الصعود وتحامل على من يمسكه تحت الماء ولايزال يفعل ذلك حتى يوافى موضع الهواء وذلك بخروجه من تحت الماء فحينئذ يسكن ويزول عنه ذلك التحامل والميل إلى جهة العلو الذى كان يوجد منه قبل ذلك.

ونظر هل يجد جسما يعرى عن إحدى هاتين الحركتين أو الميل إلى إحداهما فى وقت ما فلم يجد ذلك فى الأجسام التى لديه وإنما طلب ذلك لأنه طمع أن يجده فيرى طبيعة الجسم من حيث هو جسم دون أن يقترن به وصف من الأصاف التى هى منشأ التكثر.

فلما أعياه ذلك ونظر إلى الأجسام التى هى أقل الأجسام حملاً للأوصاف فلم يرها تعرى عن أحد هذين الوصفين بوجه وهما اللذان يعبر عنهما بالثقل والخفة فنظر إلى الثقل والخفة هل هما للجسم من حيث هو جسم أو هما لمعنى زائد على الجسمية؟ فظهر له أنهما لمعنى زائد على الجسمية لأنهما لو كانا للجسم من حيث هو جسم لما وجد جسم إلا وهما له، ونحن نجد الثقيل لا توجد فيه الخفة والخفيف لا يوجد فيه الثقل وهما لا محالة جسمان ولكل واحد منهما معنى منفرد به عن الآخر زائدة على جسميته وذلك المعنى هو الذى به غاير كل واحد منهما الآخر ولولا ذلك لكانا شيئاً واحداً من جميع الوجوه.

فتبين له أن حقيقة كل واحد من الثقيل والخفيف مركبة من معنيين، أحدهما ما يقع فيه الاشتراك منهما جميعا وهو معنى الجسيمة والآخر ما تنفرد به حقيقة كل واحد منهما عن الآخر وهما إما الثقل فى أحدهما وإما الخفة فى الآخر المقترنان بمعنى الجسمية أى المعنى الذى يحرك أحدهما علواً والآخر سفلاً.

وكذلك نظر إلى سائر الأجسام من الجمادات والأحياء فرأى أن حقيقة وجود كل واحد منهما مركبة من معنى الجسمية ومن شىء آخر زائد على الجسمية إما واحد وإما أكثر من واحد فلاحت له صور الأجسام على اختلافها وهو أول ما لاح له من العالم الروحانى إذ هى صور لا تدرك بالحس وإنما تدرك بضرب ما من النظر العقلى.

ولاح له فى جملة ما لاح من ذلك أن الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب وهو الذى تقدم شرحه.

أولا: لابد له أيضاً من معنى زائد على جسميته يصلح بذلك المعنى لأن يعمل هذه الأعمال الغريبة التى تختص به من ضروب الإحساسات وفنون الإدراكات وأصناف الحركات: وذلك المعنى

هو صورته وفصله الذى انفصل به سائر الأجسام وهو الذى يعبر عنه النظار بالنفس الحيوانية.

وكذلك أيضاً للشـــىء الذى يقوم للنبات مقام الحار الغريزى للحيوان شـــىء يخصه هو فصله وهو الذى يعبر عنه النظام بالنفس النباتية.

وكذلك لجميع أجسام الجمادات وهى ما عداً الحيوان والنبات معاً فى عالم الكون والفساد شىء يخصهـــا به يفعل كل واحد منها فعله الذى يختص به مثل صنوف الحركات وضروب الكيفيات المحسوسة عنها وذلك الشىء هو فصل كل واحد منها وهو الذى يعبر النظار عنه بالطبيعة.

فلما وقف بهذا النظر على أن حقيقة الروح الحيوانى الذى كان تشـــوقه إليه أبداً مركبة من معنى الجســـمية ومن معنى آخر زائد على الجســـمية وأن معنى هذه الجسمية مشترك ولسائر الأجسام والمعنى الآخر المقترن به ينفرد به هو وحده هان عنده معنى الجسمية فاطرحه وتعلق فكره بالمعنى الثانى وهو الذى يعبر عنه بالنفس فتشوق إلى التحقق به فالتزم الفكرة فيه وجعل مبدأ النظر فى ذلك تصفح الأجسام كلها لا من جهة ما هى أجسام بل من جهة ما هى ذوات صور تلزم عنها خواص ينفصل بها بعضها عن بعض فتتبع ذلك وحصره فى نفسه فرأى جملة من الأجســـام تشـــترك فى صورة ما يصدر عنها فعل ما أو أفعال ما ورأى فريقاً من تلك الجملة مـــع أنه يشـــارك الجملة بتلك الصورة يزيد عليها بصورة أخـــرى يصدر عنها أفعال ما. ورأى طائفـــة من ذلك الفريق فـــى الصورة الأولى والثانية تزيد عليه بصـــورة ثالثة تصدر عنها أفعال ما خاصة بها. مثال ذلك أن الأجســـام الأرضية كلها مثل التراب والحجارة والمعادن والنبات والحيوان وسائر الأجسام الثقيلة هى جملة واحدة تشترك فى صورة واحدة تصدر عنها الحركة إلى أسفل ما لم يعقها عائق عن النزول.

ومتى حركت إلى جهة العلو بالقســـر ثم تركت تحركت بصورتها إلى أســـفل. وفريق من هذه الجملة وهو النبات والحيوان مع مشـــاركته الجملة المتقدمة فى تلك الصورة يزيد عليها صورة أخرى يصدر عنها التغذى والنمو.

والتغذى: هو أن يخلف المغتذى بدل ما تحلل بالفعل منه بواسطة القوة الغاذية التى تحيل ما حصل له كمال الاستعداد بسبب القوة الهاضمة من الغذاء بالقوة الواصلة بواسطة الجاذبية إلى مشاكلة جوهر المغتذى حفظا لشخصه وتكميلا لمقداره.

والنمـــو: هو الزيادة بواســـطة القـــوة النامية وهى التى تزيد فى أقطار الجســـم أعنى الطول والعرض والعمق على التناسب الطبيعى بما تدخل فى أجزائه من الغذاء.

فهذان الفعلان عامان للنبات والحيوان وهما لا محالة صادران عن صورة مشتركة لهما وهى المعبر عنها بالنفس النباتية.

وطائفـــة من هذا الفريق وهو الحيوان خاصة مع مشـــاركته الفريـــق المتقدم فى الصورة الأولى والثانيـــة تزيـــد عليه بصورة ثالثة يصدر عنها الحس والتنقل من حيز إلى آخر. ورأى أيضاً كل

نوع من أنواع الحيوان له خاصية يتحاز بها عن سائر الأنواع ويتفصل بها متميزاً عنها.

فعلم أن ذلك صادر له عن صورة تخصه هي زائدة عن معنى الصورة المشتركة له ولسائر الحيوان وكذلك لكل واحد من أنواع النبات مثل ذلك فتبين له أن الأجسام المحسوسات التي في عالم الكون والفساد بعضها تلتئم حقيقته من معان كثيرة زائدة على معنى الجسمية وبعضها من معان أقل وعلم أن معرفة الأقل أسهل من معرفة الأكثر. فطلب أولا الوقوف على حقيقة صورة الشيء الذي تلتئم حقيقته من أقل الأشياء ورأى أن الحيوان والنبات لا تلتئم حقائقهما إلا من معان كثيرة لتفنن أفعالهما فأخر التفكير في صورهما. وكذلك رأى أن أجزاء الأرض بعضها أبسط من بعض فقصد منها إلى أبسط ما قدر عليه. وكذلك رأى أن الماء شيء قليل التركيب لقلة ما يصدر عن صورته من الأفعال وكذلك رأى النار والهواء.

وقد كان سبق إلى ظنه أولاً أن هذه الأربعة يستحيل بعضها إلى بعض وأن لها شيئاً واحداً تشترك فيه وهو معنى الجسمية وأن ذلك الشيء ينبغي أن يكون خلوا من المعاني التي تميز بها كل واحد من هذه الأربعة عن الآخر فلا يمكن أن يتحرك إلى فوق ولا إلى أسفل ولا أن يكون حاراً ولا أن يكون بارداً ولا أن يكون رطباً ولا يابساً أمكن وجود جسم لا صورة فيه زائدة عن الجسمية فليس تكون فيه صفة من هذه الصفات ولا يمكن أن تكون فيه صفة إلا وهي تعم سائر الأجسام المتصورة بضروب الصور.

فنظر هل يجد وصفاً واحداً يعم جميع الأجسام حيها وجامدها، فلم يجد شيئاً يعم الأجسام كلها إلا معنى الامتداد الموجود في جميعها في الأقطار الثلاثة التي يعبر عنها بالطول والعرض والعمق فعلم أن هذا المعنى هو للجسم من حيث هو جسم لكنه لم يتأت له بالحس وجود جسم بهذه الصفة وحدها حتى لا يكون فيه معنى زائد على الامتداد المذكور ويكون بالجملة خلوا من سائر الصور.

ثم تفكر في هذا الامتداد إلى الأقطار الثلاثة هل هو معنى الجسم بعينه وليس ثم معنى آخر أو ليس الأمر كذلك؟ فرأى أن وراء هذا الامتداد معنى آخر هو الذي يوجد فيه هذا الامتداد وحده لا يمكن أن يقوم بنفسه كما أن ذلك الشيء الممتد لا يمكن أن يقوم دون امتداد.

واعتبر ذلك ببعض هذه الأجسام المحسوسة ذوات الصور كالطين مثلاً فرأى أنه إذا عمل منه شكل ما كالكرة مثلاً كان له طول وعرض وعمق على قدر ما. ثم إن تلك الكرة بعينها لو أخذت وردت إلى شكل مكعب أو بيضي لتبدل ذلك الطول وذلك العرض وذلك العمق وصارت على قدر آخر غير الذي كانت عليه. والطين واحد بعينه لم يتبدل غير أنه لابد له من طول وعرض وعمق على أي قدر كان ولا يمكن أن تعرى عنها غير أنها لتعاقبها عليه تبين له أنها معنى على حياله ولكونه لا يعرى بالجملة عنها تبين له أنها من حقيقته.

فلاح له بهذا الاعتبار أن الجسم بما هو جسم مركب على الحقيقة من معنيين: أحدهما: يقوم

منه مقام الطين للكرة فى هذا المثال. والآخر: يقوم مقام طول الكرة وعرضها وعمقها أو المكعب أو أى شكل كان به وأنه لا يفهم الجسم إلا مركبا من هذين المعنيين وأن أحدهما لا يستغنى عن الآخر. لكن الذى يمكن أن يتبدل ويتعاقب على أوجه كثيرة، وهو معنى الامتداد يشبه الصورة التى لسائر الأجسام ذوات الصور والذى يثبت على حال واحدة وهو الذى ينزل منزلة الطين المتقدم يشبه معنى الجنسية التى لسائر الأجسام ذوات الصور. وهذا الشىء الذى هو بمنزلة الطين فى هذا المثال هو الذى يسميه النظار المادة والهيولى وهى عارية عن الصورة جملة.

***

فلما انتهى نظره إلى هذا الحد وفارق المحسوس بعض مفارقه وأشرف على تخوم العالم العقلى استوحش وحن إلى ما ألفه من عالم الحس فتقهقر قليلا وترك الجسم على الإطلاق إذ هذا الأمر لا يدركه الحس ولا يقدر على تناوله وأخذ أبسط الأجسام المحسوسة التى شاهدها وهى تلك الأربعة التى كان قد وقف نظره عليها.

فأول ما نظر إلى الماء فرأى أنه إذا خلى وما تقتضيه صورته ظهر منه برد محسوس وطلب النزول إلى أسفل فإذا سخن أولا إما بالنار وإما بحرارة الشمس زال عنه البرد أولا وبقى فيه طلب النزول فإذا أفرط عليه بالتسخين زال عنه طلب النزول إلى أسفل وصار يطلب الصعود إلى فوق فزال عنه بالجملة الوصفان اللذان كانا أبدا يصدران عنه وعن صورته ولم يعرف من صورته أكثر من صدور هذين الفعلين عنها فلمازال هذان الفعلان إذن بطل حكم الصورة فزالت الصورة المائية عن ذلك الجسم عند ما ظهرت منه أفعال من شأنها أن تصدر عن صورة أخرى وحدثت له صورة أخرى بعد أن لم تكن وصدر عنه بها أفعال لم يكن من شأنها أن تصدر عنه وهو بصورته الأولى.

فعلم بالضرورة أن كل حادث لابد له من محدث. فارتسم فى نفسه بهذا الاعتبار فاعل للصورة ارتساماً على العموم دون تفصيل.

ثم إنه تتبع الصور التى كان قد علمها قبل ذلك صورة صورة فرأى أنها كلها حادثة وأنها لابد لها من فاعل. ثم إنه نظر إلى ذوات الصور فلم ير أنها شىء أكثر من استعداد الجسم لأن يصدر عنه ذلك الفعل مثل الماء فإنه إذا أفرط عليه التسخين استعد للحركة إلى فوق وصلح لها فذلك الاستعداد هو صورته إذ ليس ههنا إلا جسم وأشياء تحس عنه بعد أن لم تكن مثل الكيفيات والحركات وفاعل يحدثها بعد أن لم تكن فصلوح الجسم لبعض الحركات دون بعض هو استعداده بصورته. ولاح له مثل ذلك فى جميع الصور فتبين له أن الأفعال الصادرة عنها ليست فى الحقيقة لها وإنما هى لفاعل يفعل بها الأفعال المنسوبة إليها وهذا المعنى الذى لاح له هو قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: عن رب العزة فى

الحديث القدسى «كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به»[1]، وفى محكم التنزيل: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ ﴾[2].

فلما لاح له من أمر هذا الفاعل ما لاح على الإجمال دون تفصيل حدث له شوق حثيث إلى معرفته على التفصيل وهو بعد لم يكن فارق عالم الحس فجعل يطلب هذا الفاعل المختار على جهة المحسوسات وهو لا يعلم بعد هل هو واحد أو أكثر؟ فتصفح جميع الأجسام التى لديه وهو التى كانت فكرته أبداً فيها فرآها كلها تتكون تارة وتفسد أخرى، وما لم يقف على فساد جملته وقف على فساد أجزائه مثل الماء والأرض فإنه رأى أجزاءهما تفسد بالنار وكذلك الهواء رآه يفسد بشدة البرد حتى يتكون منه ثلج فيسيل ماء وكذلك سائر الأجسام التى كانت لديه لم ير منها شيئاً بريئاً عن الحدوث والافتقار إلى الفاعل المختار فاطرحها كلها وانتقلت فكرته إلى الأجسام السماوية.

***

وانتهى إلى هذا النظر على رأس أربعة أسابيع من منشئه وذلك ثمانية وعشرون عاماً فعلم أن السماء وما فيها من الكواكب أجسام لأنها ممتدة فى الأقطار الثلاثة الطول والعرض والعمق لا ينفك شىء منها عن هذه الصفة وكل ما لا ينفك عن هذه الصفة فهو جسم فهى إذن كلها أجسام ثم تفكر هل هى ممتدة إلى غير نهاية وذاهبة أبدا فى الطول والعرض والعمق إلى غير نهاية أو هى متناهية محدودة بحدود تنقطع عندها ولا يمكن أن يكون وراءها شىء من الامتداد؟ فتحير فى ذلك بعض حيرة. ثم إنه بقوة نظره وذكاء خاطره رأى أن جسما لا نهاية له أمر باطل وشىء لا يمكن ومعنى لا يعقل وتقوى هذا الحكم عنده بحجج كثيرة سنحت له بينه وبين نفسه وذلك أنه قال أما هذا الجسم السماوى فهو متناه من الجهة التى تلينى والناحية التى وقع عليها حسى فهذا لا أشك فيه لأننى أدركه ببصرى وأما الجهة التى تقابل هذه الجهة وهى التى يداخلنى فيها الشك فإنى أيضاً أعلم أنه من المحال أن تمتد إلى غير نهاية لأنى إن تخيلت بأن خطين اثنين يبتدئان من هذه الجهة المتناهية ويمران فى سمك الجسم إلى غير نهاية حسب امتداد الجسم ثم تخيلت أن أحد هذين الخطين قطع منه جزء كبير من ناحية طرفه المتناهى ثم أخذ ما بقى منه وأطبق طرفه الذى كان فيه موضع القطع على طرف الخط الذى لم يقطع منه شىء وأطبق الخط المقطوع منه على الخط الذى لم يقطع منه شىء وذهب الذهن كذلك معهما إلى الجهة التى يقال إنها غير متناهية فإما أن نجد الخطين أبداً يمتدان إلى غير نهاية ولا ينقص أحدهما عن الآخر فيكون الذى قطع منه جزء مساوياً للذى لم يقطع منه شىء وهو محال كما أن الكل مثل الجزء محال وإما أن لا يمتد الناقص

(١) ورد فى مفتاح كنوز السنة.
(٢) سورة الأنفال الآية ١٧.

معه أبداً بل ينقطع دون مذهبه ويقف عن الامتداد معه فيكون متناهياً فإذا رد عليه القدر الذى قطع منه أولا وقد كان متناهياً صار كله أيضا متناهياً وحينئذ لا يقصر عن الخط الآخر الذى لم يقطع منه شيء ولا يفضل عليه فيكون إذن مثله وهو متناه فذلك أيضاً متناه.

فالجسم الذى تفرض فيه هذه الخطوط متناه وكل جسم يمكن أن تفرض فيه هذه الخطوط فكل جسم متناه.

فإذا فرضنا أن جسما غير متناه فقد فرضناً باطلاً ومحالاً.

.....

فلما صح عنده بفطرته الفائقة التى تنبهت لمثل هذه الحجة أن جسم السماء متناه أراد أن يعرف على أى شكل هو، وكيفية انقطاعه بالسطوح التى تحده أولاً إلى الشمس والقمر وسائر الكواكب فرآها كلها تطلع من جهة المشرق وتغرب من جهة المغرب فما كان منها يمر على سمت رأسه رآه يقطع دائرة عظمى وما مال عن سمت رأسه إلى الشمال أو إلى الجنوب رآه يقطع دائرة أصغر من تلك.

وما كان أبعد عن سمت الرأس إلى أحد الجانبين كانت دائرته أصغر من دائرة ما هو أقرب حتى كانت أصغر الدوائر التى تتحرك عليها الكواكب دائرتين اثنتين إحداهما حول القطب الجنوبى وهى مدار سهيل والأخرى حول القطب الشمالى وهى مدار الفرقدين. ولما كان مسكنه على خط الاستواء الذى وصفناه أولاً كانت هذه الدوائر كلها قائمة على سطح أفقه ومتشابهة الأحوال فى الجنوب والشمال وكان القطبان معاً ظاهرين له وكان يترقب إذا طلع كوكب من الكواكب على دائرة كبيرة وطلع كوكب آخر على دائرة صغيرة وكان طلوعهما معاً فكان يرى غروبهما معاً واطرد له ذلك فى جميع الكواكب وفى جميع الأوقات فتبين له بذلك أن الفلك على شكل الكرة وقوى ذلك فى اعتقاده ما رآه من رجوع الشمس والقمر وسائر الكواكب إلى المشرق بعد مغيبها بالمغرب وما رآه أيضاً من أنها تظهر لبصره على قدر واحد من العظم فى حال طلوعها وتوسطها وغروبها وأنها لو كانت حركتها على غير شكل الكرة لكانت لا محالة فى بعض الأوقات أقرب إلى بصره منها فى وقت آخر ولو كانت كذلك لكانت مقاديرها وأعظامها تختلف عند بصره فيراها فى حال القرب أعظم مما يراها فى حال البعد لاختلاف أبعادها عن مركزه حينئذ بخلافها على الأول فلما لم يكن شيء من ذلك تحقق عنده كروية الشكل.

وما زال يتصفح حركة القمر فيراها آخذة من المغرب إلى المشرق وحركات الكواكب السيارة كذلك حتى تبين له قدر كبير من عالم الهيئة وظهر له أن حركاتها لا تكون إلا بأفلاك كثيرة كلها مضمنة فى فلك واحد هو أعلاها وهو الذى يحرك الكل من المشرق إلى المغرب فى اليوم والليلة وشرح كيفية انتقاله ومعرفة ذلك يطول وهو مثبت فى الكتب ولا يحتاج منه فى غرضنا إلا للقدر الذى أوردناه.

فلما انتهى إلى هذه المعرفة ووقف على أن الفلك بجملته وما يحتوى عليه كشىء واحد متصل بعضه ببعض وأن جميع الأجسام التى كان ينظر فيها أولاً كالأرض والماء والهواء والنبات والحيوان وماشا كلها هى كلها فى ضمنه وغير خارجة عنه وأنه كله أشبه شىء بشخص من أشخاص الحيوان وما فيه من الكواكب المنيرة هى بمنزلة حواس الحيوان وما فيه من ضروب الأفلاك المتصل بعضها ببعض هى بمنزلة أعضاء الحيوان وما فى داخله من عالم الكون والفساد هى بمنزلة ما فى جوف الحيوان من أصناف الفضول والرطوبات التى كثيرا ما يتكون فيها أيضا حيوان كما يتكون فى العالم الأكبر.

***

فلما تبين له أنه كله كشخص واحد فى الحقيقة قائم محتاج إلى فاعل مختار واتحدت عنده أجزاؤه الكثيرة بنوع من النظر الذى اتحدت به عنده الأجسام التى فى عالم الكون والفساد تفكر فى العالم بجملته هل هو شىء حدث بعد أن لم يكن وخرج إلى الوجود بعد العدم؟ أو هو أمر كان موجوداً فيما سلف ولم يسبقه العدم بوجه من الوجوه؟ فتشكك فى ذلك ولم يترجح عنده أحد الحكمين على الآخر وذلك أنه كان إذا أزمع على اعتقاد القدم اعترضته عوارض كثيرة من استحالة وجود ما لا نهاية له بمثل القياس الذى استحال عنده به وجود جسم لا نهاية له. وكذلك أيضاً كان يرى أن هذا الوجود لا يخلو من الحوادث فهو لا يمكن تقدمه عليها وما لا يمكن أن يتقدم على الحوادث فهو أيضاً محدث وإذا أزمع على اعتقاد الحدوث اعترضته عوارض أخرى وذلك أنه كان يرى أن معنى حدوثه بعد أن لم يكن لا يفهم إلا على معنى أن الزمان تقدمه والزمان من جملة العالم وغير منفك عنه فإذن لا يفهم تأخر العالم عن الزمان وكذلك كان يقول: « إذا كان حادثاً فلابد له من محدث وهذا المحدث الذى أحدثه لم أحدثه الآن ولم يحدثه من قبل ذلك؟ ألطارىء طرأ عليه ولا شىء هنالك غيره أم لتغير حدث فى ذاته؟ فإن كان فما الذى أحدث ذلك التغير؟ ومازال يتفكر فى ذلك عدة سنين فتتعارض عنده الحجج ولا يترجح عنده أحد الاعتقادين على الآخر فلما أعياه ذلك جعل يتفكر ما الذى يلزم عن كل واحد من الاعتقادين فلعل اللازم عنهما يكون شيئاً واحداً فرأى أنه إن اعتقد حدوث العالم وخروجه إلى الوجود بعد العدم فاللازم عن ذلك ضرورة أنه لا يمكن أن يخرج إلى الوجود بنفسه وأنه لابد له من فاعل يخرجه إلى الوجود وأن ذلك الفاعل لا يمكن أن يدرك بشىء من الحواس لأنه لو أدرك بشىء من الحواس لكان جسما من الأجسام ولو كان جسماً من الأجسام لكان من جملة العالم وكان حادثاً واحتاج إلى محدث ولو كان ذلك المحدث الثانى أيضاً جسماً لاحتاج إلى محدث ثالث والثالث إلى رابع ويتسلسل ذلك إلى غير نهاية (وهو باطل) فإذن لابد للعالم من فاعل وليس بجسم وإذا لم يكن جسماً فليس إلى إدراكه بشىء من الحواس سبيل لأن الحواس الخمس لا تدرك إلا الأجسام أو ما يلحق الأجسام وإذا كان

لا يمكن أن يحس فلا يمكن أن يتخيل لأن التخيل ليس شيئاً إلا إحضار صور المحسوسات بعد غيبها وإذا لم يكن جسماً فصفات الأجسام كلها تستحيل عليه وأول صفات الأجسام هو الامتداد فى الطول والعرض والعمق هو منزه عن ذلك وعن جميع ما يتبع هذا الوصف من صفات الأجسام.

إذا كان فاعلا للعالم فهو لا محالة قادر عليه وعالم به ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾[1].

ورأى أيضاً أنه إن اعتقد قدم العالم وأن العدم لم يسبقه وأنه لم يزل كما هو فإن اللازم عن ذلك أن حركته قديمة لا نهاية لها من جهة الابتداء إذ لم يسبقها سكون يكون مبدؤها منه وكل حركة فلابد لها من محرك ضرورة والمحرك إما أن يكون قوة سارية فى جسم من الأجسام إما جسم المحرك نفسه وإما جسم آخر خارج عنه- وإما أن تكون قوة ليست سارية ولا شائعة فى جسم وكل قوة ليست سارية فى جسم ولا شائعة فيه فإنها تنقسم بانقسامه وتتضاعف بتضاعفه مثل الثقل فى الحجر مثلاً المحرك له إلى أسفل فإنه إن قسم الحجر نصفين انقسم ثقله نصفين وإن زيد عليه آخر مثله زاد فى الثقل آخر مثله فإن أمكن أن يتزايد الحجر أبداً إلى غير نهاية كان يتزايد هذا الثقل إلى غير نهاية وإن وصل الحجر إلى حد ما من العظم ووقف وصل الثقل أيضاً إلى ذلك الحد ولكنه قد تبرهن أن كل جسم لا محالة متناه فإذن كل قوة فى جسم فهى لا محالة متناهية فإن وجدنا قوة تفعل فعلاً لا نهاية له فهى قوة ليست فى جسم وقد وجدنا الفلك يتحرك أبدا حركة لا نهاية لها ولا انقطاع إذا فرضناه قديماً لا ابتداء له فالواجب على ذلك أن تكون القوة التى تحركه ليست فى جسمه. ولا فى جسم خارج عنه فهى إذن لشيء برىء عن الأجسام، وغير موصوف بشيء من أوصاف الجسمية. وقد كان لاح له فى نظره الأول فى عالم الكون والفساد أن حقيقة وجود كل جسم إنما هى من جهة صورته التى هى استعداده لضروب الحركات وأن وجوده الذى له من جهة مادته وجود ضعيف لا يكاد يدرك فإذن وجود العالم كله إنما هو من جهة استعداده لتحريك هذا المحرك البرىء عن المادة وعن صفات الأجسام المنزه عن أن يدركه حس أو يتطرق إليه خيال سبحانه وإذا كان فاعلاً لحركات الفلك على اختلاف أنواعها فعلاً لا تفاوت فيه ولا فتور فهو لا محالة قادر عليه وعالم به.

فانتهى نظره بهذا الطريق إلى ما انتهى إليه بالطريق الأول ولم يضره فى ذلك تشككه فى قدم العالم أو حدوثه وصح له على الوجهين جميعا وجود فاعل غير جسم ولا متصل بجسم ولا منفصل عنه ولا داخل فيه ولا خارج عنه والاتصال والانفصال والدخول والخروج هى كلها من صفات الأجسام وهو منزه عنها.

---

(١) سورة الملك الآية ١٤.

ولما كانت المادة من كل جسم مفتقرة إلى الصورة إذ لا تقوم إلا بها ولا تثبت لها حقيقة دونها وكانت الصورة لا يصح وجودها إلا من فعل هذا الفاعل المختار تبين له افتقار جميع الموجودات فى وجودها إلى هذا الفاعل وأنه لا قيام لشىء منها إلا به فهو إذن علة لها وهى معلولة له سواء كانت محدثة الوجود بعد أن سبقها العدم أو كانت لا ابتداء لها من جهة الزمان ولم يسبقها العدم قط فإنها على كلا الحالين معلولة ومفتقرة إلى الفاعل متعلقة الوجود به ولولا دوامه لم تدم ولولا وجوده لم توجد ولولا قدمه لم تكن قديمة وهو فى ذاته غنى عنها وبرىء منها وكيف لا يكون كذلك وقد تبرهن أن قدرته وقوته غير متناهية وأن جميع الأجسام وما يتصل بها أو يتعلق بها ولو بعض تعلق هو متناه منقطع، فإذن العالم كله بما فيه من السماوات والأرض والكواكب وما بينها وما فوقها وما تحتها فعله وخلقه ومتأخر عنه بالذات وإن كانت غير متأخرة بالزمان كما أنك إذا أخذت فى قبضتك جسماً من الأجسام ثم حركت يدك فإن ذلك الجسم لا محالة يتحرك تابعاً لحركة يدك حركة متأخرة عن حركة يدك تأخرا بالذات وإن كانت لم تتأخر بالزمان عنها بل كان ابتداؤهما معاً فكذلك العالم كله معلول ومخلوق لهذا الفاعل بغير زمان ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[1].

فلما رأى أن جميع الموجودات فعله تصفحها من بعد ذا تصفحاً على طريق الاعتبار فى قدرة فاعلها والتعجب من غريب صنعته ولطيف حكمته ودقيق علمه فتبين له فى أقل الأشياء الموجودة فضلاً عن أكثرها من آثار الحكمة وبدائع الصنعة ما قضى منه كل العجب وتحقق عنده أن ذلك لا يصدر إلا عن فاعل مختار فى غاية الكمال وفوق الكمال ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾[2].

ثم تأمل فى جميع أصناف الحيوان كيف أعطى كل شىء خلقه ثم هداه لاستعماله فلولا أنه هداه لاستعمال تلك الأعضاء التى خلقت له فى وجوه المنافع المقصودة بها لما انتفع بها الحيوان، وكانت كلا عليه فعلم بذلك أنه أكرم الكرماء وأرحم الرحماء.

ثم إنه مهما نظر شيئاً من الموجودات له حسن أو بهاء أو كمال أو قوة أو فضيلة من الفضائل – أى فضيلة كانت – تفكر وعلم أنها من فيض ذلك الفاعل المختار جل جلاله. ومن جوده ومن فعله فعلم أن الذى هو فى ذاته أعظم منها وأكمل وأتم وأحسن وأبهى وأجمل وأدوم وأنه لا نسبة لهذه إلى تلك فما زال يتتبع صفات الكمال كلها فيراها له وصادرة عنه ويرى أنه أحق بها من كل ما يوصف بها دونه.

وتتبع صفات النقص كلها فرآه بريئاً منها ومنزها عنها وكيف لا يكون بريئاً منها وليس

(١) سورة يس الآية ٨٢
(٢) سورة سبأ الآية ٣

معنى النقص إلا العدم المحض أو ما يتعلق بالعدم، وكيف يكون العدم تعلق أو تلمس بمن هو الموجود المحض الواجب الوجود بذاته المعطى لكل ذى وجود وجوده، فلا وجود إلا هو فهو الوجود وهو الكمال وهو التمام وهو الحسن وهو البهاء وهو القدرة وهو العلم وهو ﴿هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[1].

فانتهت به المعرفة إلى هذا الحد على رأس خمسة أسابيع من منشئه وذلك خمسة وثلاثون عاماً وقد رسخ فى قلبه من أمر الفاعل ما شغله عن الفكرة فى كل شىء إلا فيه وذهل عما كان فيه من تصفح الموجودات والبحث عنها حتى صار بحيث لا يقع بصره على شىء من الأشياء إلا ويرى فيه أثر الصنعة من حينه فينتقل بفكره على الفور إلى الصانع ويترك المصنوع حتى اشتد شوقه إليه وانزعج قلبه بالكلية عن العالم الأدنى المحسوس وتعلق بالعالم الأرفع المعقول.

فلما حصل له العلم بهذا الموجود الرفيع الثابت الوجود الذى لا سبب لوجوده وهو سبب لوجود جميع الأشياء أراد أن يعلم بأى شى، حصل له هذا العلم وبأى قوة أدرك هذا الموجود فتصفح حواسه كلها وهى السمع والبصر والشم والذوق واللمس فرأى أنها كلها لا تدرك شيئاً إلا جسماً أو ما هو فى جسم وذلك أن السمع إنما يدرك المسموعات وهى ما يحدث من تموج الهواء عند تصادم الأجسام والبصر إنما يدرك الألوان والشم يدرك الروائح والذوق يدرك الطعوم واللمس يدرك الأمزجة والصلابة واللين والخشونة والملامسة وكذلك القوة الخيالية لا تدرك شيئاً إلا أن يكون له طول وعرض وعمق وهذه المدركات كلها من صفات الأجسام وليس لهذه الحواس إدراك شىء سواها. وذلك لأنها قوى شائعة فى الأجسام ومنقسمة بانقسامها فهى لذلك لا تدرك إلا جسماً منقسماً، لأن هذه القوة إذا كانت شائعة فى شىء منقسم فلا محالة إذا أدركت شيئا من الأشياء فإنه ينقسم بانقسامها فإذن كل قوة فى جسم فإنها لا محالة لا تدرك إلا جسماً أو ما هو فى جسم وقد تبين أن هذا الموجود الواجب الوجود برىء من صفات الأجسام من جميع الجهات فإذن لا سبيل إلى إدراكه إلا بشىء ليس بجسم، ولا هو قوة فى جسم ولا تعلق له بوجه من الوجوه بالأجسام ولا هو داخل فيها ولا خارج عنها ولا متصل بها ولا منفصل عنها. وقد كان تبين له أن إدراكه بذاته ورسخت المعرفة به عنده فتبين له بذلك أن ذاته التى أدركه بها أمر غير جسمانى لا يجوز عليه شىء من صفات الأجسام. وأن كل ما يدركه من ظاهر ذاته من الجسميات فإنها ليست حقيقة ذاته وإنما حقيقة ذاته ذلك الشىء الذى أدرك به الموجود المطلق الواجب الوجود.

فلما علم أن ذاته ليست هذه المتجسمة التى يدركها بحواسه ويحيط بها أديمه هان عنده بالجملة جسمه وجعل يتفكر فى تلك الذات الشريفة التى أدرك بها ذلك الموجود الشريف

(١) سورة القصص الآية ٨٨

الواجب الوجود ونظر فى ذاته تلك الشريفة هل يمكن أن تبيد أو تفسد وتضمحل أو هى دائمة البقاء؟ فرأى أن الفساد والاضمحلال إنما هو من صفات الأجسام بأن تخلع صورة وتلبس أخرى مثل الماء إذ صار هواء والهواء إذا صار ماء والنبات إذا صار تراباً أو رماداً والتراب إذا صار نباتاً فهذا هو معنى الفساد.

وأما الشىء الذى ليس بجسم ولا يحتاج فى قوامه إلى الجسم وهو منزه بالجملة من الجسميات فلا يتصور فساده البتة.

فلما ثبت له أن ذاته الحقيقية لا يمكن فسادها أراد أن يعلم كيف يكون حالها إذا طرحت البدن وتخلت عنه. وقد كان تبين له أنها لا تطرحه إلا إذا لم يصلح آلة لها فتصفح جميع القوى المدركة فرأى أن كل واحدة منها تارة تكون مدركة بالقوه وتارة تكون مدركة بالفعل مثل العين فى حال تغميضها أو إعراضها عن المبصر فإنها تكون مدركة بالقوة ومعنى مدركة بالقوة أنها لا تدرك الآن وتدرك فى المستقبل – وفى حال فتحها واستقبالها للمبصر تكون مدركة بالفعل – ومعنى مدركة بالفعل أنها الآن تدرك – وكذلك كل واحدة من هذه القوى تكون مدركة بالقوة وتكون مدركة بالفعل وكل واحدة من هذه القوى إن كانت لم تدرك قط بالفعل فهى ما دامت بالقوة لا تتشوق إلى إدراك الشىء المخصوص بها لأنها لم تتعرف به بعد مثل من خلق مكفوف البصر وإن كانت قد أدركت بالفعل تارة ثم صارت بالقوة فإنها مادامت بالقوة تشتاق إلى الإدراك بالفعل لأنها قد تعرفت بذلك المدرك وتعلقت به وحنت إليه مثل من كان بصيرا ثم عمى فإنه لا يزال يشتاق إلى المبصرات.

وبحسب ما يكون الشىء المدرك أتم وأبهى وأحسن يكون الشوق إليه أكثر والتألم لفقده أعظم ولذلك كان تألم من يفقد بصره بعد الرؤية أعظم من تألم من يفقد شمه إذ الأشياء التى يدركها البصر أتم وأحسن من التى يدركها الشم فإن كان فى الأشياء شىء لا نهاية لكماله ولا غاية لحسنه وجماله وبهائه، وهو فوق الكمال والبهاء والحسن وليس فى الوجود كمال ولا حسن ولا بهاء ولا جمال إلا صادر من جهته وفائض من قبله. فمن فقد إدراك ذلك الشىء بعد أن تعرف به فلا محالة أنه ما دام فاقدا له يكون فى آلام لا نهاية لها كما أن من كان مدركا له على الدوام فإنه يكون فى لذة لا انفصام لها وغبطة لا غاية وراءها وبهجة وسرور لا نهاية لهما.

وقد كان تبين له أن الموجود الواجب الوجود متصف بأوصاف الكمال كلها ومنزه عن صفات النقص وبرىء منها وتبين أن الشىء الذى به يتوصل إلى إدراكه أمر لا يشبه الأجسام ولا يفسد لفسادها فظهر له بذلك أن من كانت له مثل هذه الذات المعدة لمثل هذا الإدراك فإنه إذا اطرح البدن بالموت فإما أن يكون قبل ذلك فى مدة تصريفه للبدن لم يتعرف قط بهذا الموجود الواجب الوجود ولا اتصل به ولا سمع عنه فهذا إذا فارق البدن لا يشتاق إلى ذلك الموجود ولا يتألم لفقده.

وأما جميع القوى الجسمانية فإنها تبطل ببطلان الجسم فلا تشتاق أيضا إلى مقتضيات تلك القوى ولا تحن إليها ولا تتألم بفقدها. وهذه حال البهائم غير الناطقة كلها، سواء كانت من صورة الإنسان أو لم تكن. وإما أن يكون قبل ذلك – فى مده تصريفه للبدن – وقد تعرف بهذا الموجود وعلم ما هو عليه من الكمال والعظمة والسلطان والقدرة والحسن إلا أنه أعرض عنه واتبع هواه حتى وافته منيته وهو على تلك الحال فيحرم المشاهدة وعنده الشوق إليها فيبقى فى عذاب طويل وآلام لا نهاية لها. فإما أن يتخلص من تلك الآلام بعد جهد طويل ويشاهد ما تشوق إليه قبل ذلك وإما أن يبقى فى آلامه بقاء سرمديا بحسب استعداده لكل واحد من الوجهين فى حياته الجسمانية وأما من تعرف بهذا الموجود الواجب الوجود قبل أن يفارق البدن وأقبل بكليته عليه والتزم الفكرة فى جلاله وحسنه وبهائه ولم يعرض عنه حتى وافته منيته، وهذا على حال من الإقبال والمشاهدة بالفعل. فهذا إذا فارق البدن بقى فى لذة لا نهاية لها وغبطة وسرور وفرح دائم لاتصال مشاهدته لذلك الموجود الواجب الوجود وسلامة تلك المشاهدة من الكدر والشوائب ويزول عنه ما تقتضيه هذه القوة الجسمانية من الأمور الحسية التى هى – بالإضافة إلى تلك الحال – آلام وشرور وعوائق.

فلما تبين له أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام مشاهدة بالفعل أبداً حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم.

وإليه أشار الجنيد شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه: «هذا وقت يؤخذ منه «الله أكبر» – وأحرم للصلاة».

ثم جعل يتفكر كيف يتأتى له دوام هذه المشاهدة بالفعل حتى لا يقع منه إعراض فكان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود كل ساعة فما هو إلا أن يسنح لبصره محسوس ما من المحسوسات أو يخرق سمعه صوت بعض الحيوان أو يعترضه خيال من الخيالات أو يناله ألم فى أحد أعضائه أو يصيبه الجوع أو العطش أو البرد أو الحر أو يحتاج إلى القيام لدفع فضوله فتخيل فكرته ويزول عما كان فيه ويتعذر عليه الرجوع إلى ما كان عليه من حال المشاهدة إلا بعد جهد.

وكان يخاف أن تفجأه منيته وهو فى حال الإعراض فيقضى إلى الشقاء الدائم وألم الحجاب.

فساءه حاله ذلك وأعياه الدواء. فجعل يتصفح أنواع الحيوانات كلها وينظر أفعالها وما تسعى فيه لعله ينظر فى بعضها أنها شعرت بهذا الموجود وجعلت تسعى نحوه فيتعلم منها ما يكون سبب نجاته. فرآها كلها إنما تسعى فى تحصيل غذائها ومقتضى شهواتها من المطعوم والمشروب والمنكوح والاستظلال والاستدفاء وتجد فى ذلك ليلها ونهارها إلى حين مماتها وانقضاء مدتها. ولم ير شيئاً منها ينحرف عن هذا الرأى ولا يسعى لغيره فى وقت من الأوقات فبان له بذلك أنها لم تشعر بذلك الموجود ولا اشتاقت إليه ولا تعرفت به بوجه من الوجوه

وأنها كلها صائرة إلى العدم أو إلى حال شبيه بالعدم.

فلما حكم بذلك على الحيوان علم أن الحكم له على النبات أولى إذ ليس للنبات من الإدراكات إلا بعض ما للحيوان.

وإذا كان الأكمل إدراكاً لم يصل إلى هذه المعرفة فالأنقص إدراكاً أحرى أن لا يصل مع أنه رأى أيضاً أن أفعال النبات كلها لا تتعدى الغذاء والتوليد.

ثم إنه بعد ذلك نظر إلى الكواكب والأفلاك فرآها كلها منتظمة الحركات جارية على نسق وراءها شفافة ومضيئة بعيدة عن قبول التغير والفساد فحدس حدساً قوياً أن لها ذوات سوى أجسامها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وأن تلك الذوات العارفة ليست بأجسام ولا منطبعة فى أجسام مثل ذاته هو العارفة وكيف لا يكون لها مثل تلك الذوات البريئة عن الجسمانية ويكون لمثله هو على ما به من الضعف وشدة الاحتياج إلى الأمور المحسوسة وأنه من جملة الأجسام الفاسدة؟ ومع ما به من النقص فلم يعقه ذلك عن أن تكون ذاته شيئاً بريئاً عن الأجسام لا تفسد فتبين بذلك أن الأجسام السماوية أولى بذلك وعلم أنها تعرف ذلك الموجود الواجب الوجود وتشاهده على الدوام بالفعل لأن العوائق التى قطعت به هو دوام المشاهدة من العوارض المحسوسة لا يوجد مثلها للأجسام السماوية.

ثم أنه تفكر لم اختص هو من بين سائر أنواع الحيوان بهذه الذات التى أشبه بها الأجسام السماوية وقد كان تبين له أولاً من أمر العناصر واستحالة بعضها إلى بعض وأن جميع ما على وجه الأرض لا يبقى على صورته بل الكون والفساد متعاقبان عليه أبدا وأن أكثر هذه الأجسام مختلطة مركبة من أشياء متضادة ولذلك تؤول إلى الفساد وأنه لا يوجد منها شيء صرفاً وما كان منها قريباً من أن يكون صرفاً خالصاً لا شائبة فيه فهو بعيد عن الفساد جداً مثل جسد الذهب والياقوت وأن الأجسام السماوية بسيطة صرفة ولذلك هى بعيدة عن الفساد والصور لا تتعاقب عليها. وتبين له هنالك أيضاً أن جميع الأجسام التى فى عالم الكون والفساد منها ما تتقوم حقيقتها بصورة واحدة زائدة على معنى الجسمية وهذه هى الأسطقسات[1] الأربعة ومنها ما تتقوم حقيقتها بأكثر من ذلك كالحيوان والنبات فما كان قوام حقيقته بصور أقل كانت أفعاله أقل وبعده عن الحياة أكثر. فإن عدم الصورة جملة لم يكن فيه إلى الحياة طريق وصار فى حال شبيهة بالعدم وما كان قوام حقيقته بصور أكثر كانت أفعاله أكثر ودخوله فى حال الحياة أبلغ وإن كانت تلك الصور بحيث لا سبيل إلى مفارقتها نادتها التى اختصت بها كانت الحياة حينئذ فى غاية الظهور والدوام والقوة. فالشيء العديم الصورة جملة هو الهيولى والمادة ولا شيء من الحياة فيها وهى شبيهة بالعدم والشيء المتقوم بصورة واحدة هو

(١) الأسطقس كلمة يونانية بمعنى العنصر، وكانوا يعتقدون أن العالم مكون من عناصر أربعة وهى: الماء والتراب والهواء والنار وأن هذه العناصر الأربعة تسمى الأسطقسات الأربعة.

الأسطقسات الأربعة وهى فى أول مراتب الوجود فى عالم الكون والفساد ومنها تتركب الأشياء ذوات الصور الكثيرة. وهذه الأسطقسات ضعيفة الحياة جداً إذ ليست تتحرك إلا حركة واحدة وإنما كانت ضعيفة الحياة لأن لكل واحد منها ضدًا ظاهر العناد يخالفه فى مقتضى طبيعته ويطلب أن يغير صورته فوجوده لذلك غير متمكن وحياته ضعيفة والنبات أقوى حياة منه والحيوان أظهر حياة منه.

وذلك أن ما كان من هذه المركبات تغلب عليه طبيعة أسطقس واحد فلقوته فيه يغلب طبائع الأسطقسات الباقية ويبطل قواها ويصير ذلك المركب فى حكم الأسطقس الغالب فلا يستأهل لأجل ذلك من الحياة إلا شيئاً يسيراً بما أن ذلك الأسطقس لا يستأهل من الحياة إلا يسيراً ضعيفاً وما كان من هذه المركبات لا تغلب عليه طبيعة أسطقس واحد منها فإن الأسطقسات تكون فيه متعادلة متكافئة فإذن لا يبطل أحدها قوة الآخر بأكثر مما يبطل ذلك الآخر قوته بل يفعل بعضها فى بعض فعلاً متساوياً فلا يكون فعل أحد الأسطقسات أظهر فيه ولا يستولى عليه أحدهما فيكون بعيد الشبه من كل واحد من الأسطقسات فكأنه لا مضادة لصورته فيستأهل للحياة بذلك. ومتى زاد هذا الاعتدال وكان أتم وأبعد من الانحراف كان بعده عن أن يوجد له ضد أكثر وكانت حياته أكمل.

ولما كان الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب شديد الاعتدال لأنه ألطف من الأرض والماء وأغلظ من النار والهواء صار فى حكم الوسط ولم يضاده شىء من الأسطقسات مضادة بينه، فاستمد بذلك الصورة الحيوانية فرأى أن الواجب على ذلك أن يكون أعدل ما فى هذه الأرواح الحيوانية مستعداً لأتم ما يكون من الحياة فى عالم الكون والفساد وأن يكون ذلك الروح قريبا من أن يقال إنه لا ضد لصورته فيشبه لذلك هذه الأجسام السماوية التى لا ضد لصورها ويكون روح ذلك الحيوان وكأنه وسط بالحقيقة بين الأسطقسات التى لاتتحرك إلى جهة العلو على الإطلاق ولا إلى جهة السفل بل لو أمكن أن يجعل فى وسط المسافة التى بين المركز وأعلى ما تنتهى إليه النار فى جهة العلو ولم يطرأ عليه فساد لثبت هناك ولم يطلب الصعود ولا النزول. ولو تحرك فى المكان لتحرك حول الوسط كما تتحرك الأجسام السماوية ولو تحرك فى الوضع لتحرك على نفسه وكان كروى الشكل إذ لا يمكن غير ذلك فإذن هو شديد الشبه بالأجسام السماوية.

ولما كان قد اعتبر أحوال الحيوان ولم ير فيها ما يظن به أنه شعر بالموجود الواجب الوجود وقد كان علم من ذاته أنها قد شعرت به قطع بذلك على أنه هو الحيوان المعتدل الروح الشبيه بالأجسام السماوية كلها وتبين له أنه نوع مباين لسائر أنواع الحيوان وأنه إنما خلق لغاية أخرى وأعد لأمر عظيم لم يعد له شىء من أنواع الحيوان وكفى به شرفاً أن يكون أخس جزأيه- وهو الجسمانى- أشبه الأشياء بالجواهر السماوية- الخارجة عن عالم الكون والفساد

المنزهة عن حوادث النقص والاستحاله والتغير وأما أشرف جزأيه فهو الشيء الذى به عرف الموجود الواجب الوجود وهذا الشيء العارف أمر ربانى إلهى لا يستحيل ولا يلحقه الفساد ولا يوصف بشيء مما توصف به الأجسام ولا يدرك بشيء من الحواس ولا يتخيل ولا يتوصل إلى معرفته بآلة سواه بل يتوصل إليه به فهو العارف والمعروف والمعرفة وهو العالم والمعلوم والعلم لا يتباين فى شيء من ذلك إذ التباين والانفصال من صفات الأجسام ولواحقها ولا جسم هنالك ولا صفة جسم ولا لاحق بجسم.

فلما تبين له الوجه الذى اختص به من بين سائر أصناف الحيوان بمشابهة الأجسام السماوية رأى أن الواجب عليه أن يتقيلها ويحاكى أفعالها ويتشبه بها جهده. وكذلك رأى أنه بجزئه الأشرف الذى به عرف الموجود الواجب الوجود فيه شبه ما منه من حيث هو منزه عن صفات الأجسام كما أن الواجب الوجود منزه عنها ورأى أيضاً أنه يجب عليه أن يسعى فى تحصيل صفاته لنفسه من أى وجه أمكن وأن يتخلق بأخلاقه ويقتدى بأفعاله ويجد فى تنفيذ إرادته ويسلم الأمر له ويرضى بجميع حكمه رضاً من قلبه ظاهراً وباطناً بحيث يسر به وإن كان مؤلماً لجسمه وضاراً به ومتلفاً لبدنه بالجملة. وكذلك أيضاً رأى أن فيه شبها من سائر أنواع الحيوان بجزئه الخسيس الذى هو من عالم الكون والفساد وهو البدن المظلم الكثيف الذى يطالبه بأنواع المحسوسات من المطعوم والمشروب والمنكوح ورأى أيضاً أن ذلك البدن لم يخلق له عبثاً ولا قرن به لأمر باطل وأنه يجب عليه أن يتفقده ويصلح من شأنه وهذا التفقد لا يكون منه إلا بفعل يشبه أفعال سائر الحيوان، فاتجهت عنده الأعمال التى يجب عليه أن يفعلها نحو ثلاثة أغراض:

إما عمل يتشبه به بالحيوان غير الناطق

وإما عمل يتشبه بالأجسام السماوية

وإما عمل يتشبه به بالموجود الواجب الوجود.

فالتشبه الأول: يجب عليه من حيث له البدن المظلم ذو الأعضاء المنقسمة والقوى المختلفة والمنازع المتفننة.

والتشبه الثانى: يجب عليه من حيث له الروح الحيوانى الذى مسكنه القلب وهو مبدأ لسائر البدن ولما فيه من القوى.

والتشبه الثالث: يجب عليه من حيث هو هو أى من حيث هو الذات التى بها عرف ذلك الموجود الواجب الوجود.

وكان أولاً قد وقف على أن سعادته وفوزه من الشقاء إنما هما فى دوام المشاهدة لهذا الموجود الواجب الوجود حتى يكون بحيث لا يعرض عنه طرفة عين.

ثم إنه نظر فى الوجه الذى يتأتى له به هذا الدوام فأخرج له النظر أنه يجب عليه الأعتمال

فى هذه الأقسام الثلاثة من التشبيهات.

أما التشبه الأول: فلا يحصل له به شىء من هذه المشاهدة بل هو صارف عنه وعائق دونها إذ هو تصرف فى الأمور المحسوسة والأمور المحسوسة، كلها حجب معترضة دون تلك المشاهدة وإنما احتيج إلى هذا التشبه لاستدامة هذا الروح الحيوانى الذى يحصل به التشبه الثانى بالأجسام السماوية. فالضرورة تدعو إليه من هذا الطريق ولو كان لا يخلو من تلك المضرة.

وأما التشبه الثانى: فيحصل له به حظ عظيم من المشاهدة على الدوام لكنها مشاهدة يخالطها شوب إذ من يشاهد ذلك النحو من المشاهدة على الدوام فهو مع تلك المشاهدة يعقل ذاته ويلتفت إليها حسبما يتبين بعد هذا.

وأما التشبه الثالث: فتحصل به المشاهدة الصرفة والاستغراق المحض الذى لا التفات فيه بوجه من الوجوه إلا إلى الموجود الواجب الوجود. والذى يشاهد هذه المشاهدة قد غابت عنه ذات نفسه وفنيت وتلاشت.

وكذلك سائر الذوات كثيرة كانت أو قليلة إلا ذات الواحد الحق الواجب الوجود جل وتعالى وعز.

فلما تبين له أن مطلوبه الأقصى هو هذا التشبه الثالث وأنه لا يحصل له إلا بعد التمرن والاعتماد مدة طويلة فى التشبه الثانى وأن هذه المدة لا تدوم له إلا بالتشبه الأول وعلم أن التشبه الأول- وإن كان ضرورياً فإنه عائق بذاته وإن كان معينا بالعرض لا بالذات لكنه ضرورى- ألزم نفسه أن يجعل لها حظاً من هذا التشبه الآول إلا بقدر الضرورة وهى الكفاية التى لا بقاء للروح الحيوانى بأقل منها.

ووجد ما تدعو إليه الضرورة فى بقاء هذا الروح أمرين.

أحدهما: ما يمده به من داخل ويخلف عليه بدل ما يتحلل منه وهو الغذاء.

والآخر: ما يقيه من خارج ويدفع عنه وجوه الأذى من البرد والحر والمطر ولفح الشمس والحيوانات المؤذية ونحو ذلك ورأى أنه إن تناول ضرورية من هذه جزافاً كيفما اتفق ربما وقع فى السرف وأخذ فوق الكفاية فكان سعيه على نفسه من حيث لا يشعر فرأى أن الحزم له أن يفرض لنفسه فيها حدوداً لا يتعداها ومقادير لا يتجاوزها وبان له أن الغرض يجب أن يكون فى جنس ما يتغذى به وأى شىء يكون وفى مقداره وفى المدة التى تكون بين العودات إليه. فنظر أولاً فى أجناس ما به يتغذى فرآها ثلاثة أضرب: إما نبات لم يكمل بعد نضجه ولم ينته إلى غاية تمامه وهى أصناف البقول الرطبة التى يمكن الاغتذاء بها.

وإما ثمرات النبات الذى قد تم وتناهى وأخرج بزره ليتكون منه آخر من نوعه حفظاً له وهى أصناف الفواكه رطبها ويابسها.

وإما حيوان من الحيوانات التى يغتذى بها إما البرية وإما البحرية.

وكان قد صح عنده أن هذه الأجناس كلها من فعل ذلك الموجود الواجب الوجود الذى تبين

لــه أن ســعادته فى القرب منه وطلب التشــبه به ولا محالة أن الاغتــذاء بها مما يقطعها عن كمالها ويحول بينها وبين الغاية القصوى المقصودة بها. فكان ذلك اعتراض على فعل الفاعل. وهذا الاعتراض مضاد لما يطلبه من القرب منه والتشبه به فرأى أن الصواب كان له لو أمكن أن يمتنع عن الغذاء جملة واحدة لكنه لما لم يمكنه ذلك ورأى أنه إن امتنع عنه آل ذلك إلى فساد جسمه فيكون ذلك اعتراضاً على فاعله أشد من الأول إذ هو أشرف من تلك الأشياء الأخر التى يكون فســادها سبباً لبقائه. فاستسهل أيسر الضررين وتسامح فى أخف الاعتراضين ورأى أن يأخذ من هذه الأجناس إذا عدمت أيها تيسر له بالقدر الذى يتبين له بعد هذا.

فأما إن كانت كلها موجودة فينبغى له حينئذ أن يتثبت ويتخير منها ما لم يكن فى أخذه كبــير اعتراض على فعــل الفاعل وذلك مثل لحوم الفواكه التى قــد تناهت فى الطيب وصلح ما فيها من البذر لتوليد المثل على شــرط التحفظ بذلك البذر بأن لا يأكله ولا يفســده ولا يلقيه فى موضع لا يصلح للنبات مثل الصفاة[1] والســبخة ونحوهما فإن تعذر عليه وجود مثل هذه الثمــرات ذات اللحم الغاذى كالتفاح والكمثرى والأجاص ونحوها. كان له عند ذلك أن يأخذ إما من الثمرات التى لا يغذو منها إلا نفس البذر كالجوز والقســطل[2] وإما من البقول التى لم تصل بعد حد كمالها.

والشــرط عليه فى هذين أن يقصد أكثرها وجوداً وأقواها توليداً وأن لا يســتأصل أصولها ولا يفنى بذرها. فإن عدم هذه فله أن يأخذ من الحيوان أو من بيضه. والشــرط عليه فى الحيوان أن يأخذ من أكثره وجوداً ولا يستأصل منه نوعا بأسره.

هذا ما رآه فى جنس ما يغتذى به.

واما المقدار فرأى أن يكون بحسب ما يسد غلة الجوع ولا يزيد عليها.

وامــا الزمــان الذى بــين كل عودتين فرأى أنــه إذا أخذ حاجته من الغــذاء أن يقيم عليه ولا يتعرض لسواه حتى يلحقه ضعف يقطع به عن بعض الأعمال التى تجب عليه فى التشبه الثانى وهى التى يأتى ذكرها بعد هذا.

فأما تدعو إليه الضرورة فى بقاء الروح الحيوانى مما يقيه من خارج فكان الخطب فيه عليه يســيراً إذ كان مكتســياً بالجلود وقد كان له مسكن يقيه مما يرد عليه من خارج فاكتفى بذلك ولم ير الاشتغال به والتزام فى غذائه القوانين التى رسمها لنفسه وهى التى تقدم شرحها.

ثم أخذ فى العمل الثانى وهو التشبه بالأجسام السماوية والاقتداء بها والتقبل لصفاتها وتتبع أوصافها فانحصرت عنده فى ثلاثة أضرب.

---

(١) الصفاة: الحجر الضخم الشديد الذى لا ينبت.

(٢) هو المسمى عند العامة بأبى فروة.

الضرب الأول: أوصاف لها بالإضافة إلى ما تحتها من عالم الكون والفساد وهى ما تعطيه إياه من التسخين بالذات أو التبريد بالعرض والإضاءة والتلطيف والتكثيف إلى سائر ما تفعل فيه من الأمور التى بها يستعد لفيضان الصور الروحانية عليه من عند الفاعل الواجب الوجود.

والضرب الثانى: أوصاف لها فى ذاتها مثل كونها شفافة ونيرة وطاهرة منزهة عن الكدر وضروب الرجس ومتحركة بالاستدارة بعضها على مركز نفسها وبعضها على مركز غيرها.

والضرب الثالث: أوصاف لها بالإضافة إلى الموجود الواجب الوجود مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق إليه وتتصرف بحكمه وتتسخر فى تتميم إرادته ولا تتحرك إلا بمشيئته وفى قبضته. فجعل يتشبه بها جهده فى كل واحد من هذه الأضرب الثلاثة. أما الضرب الأول. فكان تشبهه بها أن ألزم نفسه أن لا يرى ذا حاجة أو عاهة أو مضرة أو ذا عائق من الحيوان والنبات وهو يقدر على إزالتها عنه إلا وتزيلها.

فمتى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشاً يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب إن كان مما يزال وفصل بينه وبين ذلك المؤذى بفاصل لا يضر المؤذى وتعهده بالسقى ما أمكنه ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه ضبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك أو سقط فى عينيه أو أذنيه شىء يؤذيه أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله عن جهده وأطعمه وأسقاه.

ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان وقد عاقه عن ممره ذلك عائق من حجر سقط فيه أو جرف انهار عليه أزال ذلك كله عنه ومازال يمعن فى هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ فيه الغاية.

وأما الضرب الثانى: فكان تشبهه بها فيه أن ألزم نفسه دوام الطهارة وإزالة الدنس والرجس عن جسمه والاغتسال بالماء فى أكثر الأوقات وتنظيف ما كان من أظفاره وأسنانه ومغابن[1] بدنه وتطييبها بما أمكنه من طيب النبات وصنوف الدواهن العطرة وتعهده لباسه بالتنظيف حتى كان يتلألأ حسناً وجمالاً ونظافة وطيباً.

والتزم مع ذلك ضروب الحركة على الاستدارة فتارة كان يطوف بالجزيرة ويدور على ساحلها ويسيح بأكتافها وتارة كان يطوف ببيته أو ببعض الكدى أدواراً معدودة إما مشياً وإما هرولة وتارة يدور على نفسه حتى يغشى عليه.

وأما الضرب الثالث: فكان تشبهه بها فيه أن كان يلازم الفكرة فى ذلك الموجود الواجب الوجود ثم يقطع علائق المحسوسات ويغمض عينيه ويسد أذنيه ويضرب جهده عن تتبع الخيال ويروم بمبلغ طاقته أن لا يفكر فى شىء سواه ولا يشرك به أحداً ويستعين على ذلك

(١) هى الإبط وكل مجمع قذارة فى الجسم.

بالاستدارة على نفسه والاستحثاث فيها. فكان إذا اشتد فى الاستدارة غابت عنه جميع المحسوسات وضعف الخيال وسائر القوى التى تحتاج إلى الآلات الجسمانية وقوى فعل ذاته- التى هى بريئة من الجسم- فكانت فى بعض الأوقات فكرته قد تخلص عن الشوب ويشاهد بها الموجود الواجب الوجود ثم تكر عليه القوى الجسمانية فيفسد عليه حاله وترده إلى أسفل السافلين فيعود من ذى قبل فإن لحقه ضعف يقطع به من غرضه تناول بعض الأغذية عن الشوائط المذكورة.

ثم انتقل إلى شأنه من التشبه بالأجسام السماوية بالأضرب الثلاثة المذكورة ودأب على ذلك مدة وهو يجاهد قواه الجسمانية وتجاهده وينازعها وتنازعه فى الأوقات التى يكون له عليها الظهور وتتخلص فكرته عن الشوب يلوح له شىء من أحوال أهل التشبه الثالث ثم جعل يطلب التشبه الثالث ويسعى فى تحصيله فينظر فى صفات الموجود الواجب الوجود.

وقد كان تبين له أثناء نظره العلمى قبل الشروع فى العمل أنها على ضربين إما صفة ثبوت كالعلم والقدرة والحكمة وإما صفة سلب كتنزهة عن الجسمانية ولواحقها وما يتعلق بها ولو على بعد.

وأن صفات الثبوت يشترط فيها التنزيه حتى لا يكون فيها شىء من صفات الأجسام التى من جملتها الكثرة فلا تتكثر ذاته بهذه الصفات الثبوتية ثم ترجع كلها إلى معنى واحد هى حقيقة ذاته فجعل يطلب كيف يتشبه به فى كل واحد من هذين الضربين.

أما صفات الإيجاب فلما علم أنها كلها راجعة إلى حقيقة ذاته وأنه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه إذ الكثرة من صفات الأجسام وعلم أن علمه بذاته ليس معنى زائداً على ذاته بل ذاته هى علمه بذاته وعلمه بذاته هو ذاته تبين له أنه إن أمكنه هو أن يعلم ذاته فليس ذلك العلم الذى علم به ذاته معنى زائداً على ذاته بل هو هو فرأى أن التشبه به فى صفات الإيجاب هو أن يعلمه فقط دون أن يشرك بذلك شيئاً من صفات الأجسام. فأخذ نفسه بذلك.

وأما صفات السلب فإنها كلها راجعة إلى التنزه عن الجسمية فجعل يطرح أوصاف الجسمية عن ذاته. وكان قد اطرح منها كثيراً فى رياضته المتقدمة التى كان ينحو بها التشبه بالأجسام السماوية إلا أنه أبقى منها بقاياً كثيرة كحركة الاستدارة- والحركة من أخص صفات الأجسام وكالاعتناء بأمر الحيوان والنبات والرحمة لها. والاهتمام بإزالة عوائقها فإن هذه أيضاً من صفات الأجسام إذ لا يراها أولاً إلا بقوة هى جسمانية ثم يكدح فى أمرها بقوة جسمانية أيضا فأخذ فى طرح ذلك كله عن نفسه إذ هى بجملتها لا يليق بهذه الحالة التى يطلبها الآن.

وما زال يقتصر على السكون فى قصر مغارته مطرقاً غاضاً بصره معرضاً عن جميع المحسوسات والقوى الجسمانية مجتمع الهم والفكرة فى الموجود الواجب الوجود وحده دون شركة، فمتى سنح لخياله سانح سواه طرده عن خياله جهده، ودافعه وراض نفسه على ذلك ودأب فيه مدة طويلة بحيث تمر عليه عدة أيام لا يتغذى فيها ولا يتحرك.

وفـى خلال شـدة مجاهدته هذه ربما كانت تغيب عن ذكـره وفكره جميع الذوات إلا ذاته فإنها كانت لا تغيب عنه فى وقت اسـتغراقه بمشـاهدة الموجود الأول الحق الواجب الوجود فكان يسـوؤه ذلك ويعلم أنه شـوب فى المشـاهدة المحضة وشركة فى الملاحظة ومازال يطلب الفنـاء عن نفسـه والإخلاص فى مشـاهدة الحق حتى تأتى له ذلك وغابـت عن ذكره وفكره السـماوات والأرض وما بينهما وجميـع الصور الروحانية والقوى الجسـمانية وجميع القوى المفارقة للمواد والتى هى الذوات العارفة بالموجود وغابت ذاته فى جملة تلك الذوات وتلاشى الـكل واضمحل وصار هباء منثوراً ولم يبق إلا الواحد الحق الموجود الثابت الوجود. وهو يقول بقولـه الذى ليـس معنى زائدا على ذاتـه.. ﴿لِمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾[1]، ففهم كلامه وسمـع نـداءه ولم يمنعه عن فهمه كونه لا يعرف الكلام ولا يتكلم. واسـتغرق فى حالته هذه وشـاهد ما لا عين رأت. ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشـر. فلا تعلق قلبك بوصف أمر لم يخطر على قلب بشـر فإن كثيرا من الأمور التى قد تخطر على قلوب البشـر يتعذر وصفها فكيف بأمر لا سبيل إلى خطوره على قلب ولا هو من عالمه ولا من طوره؟ ولست أعنى بالقلب جسم القلب ولا الروح التى فى تجويفه بل أعنى به صورة تلك الروح الفائضة بقواها على بدن الإنسان فإن كل واحد من هذه الثلاثة قد يقال له «قلب» ولكن لا سبيل لخطور ذلك الأمر على واحد من هذه الثلاثة ولا يأتى التعبير إلا عما خطر عليها.

ومـن رام التعبـير عن تلك الحال فقد رام مسـتحيلاً وهو بمنزلة من يريـد أن يذوق الألوان المصبوغة من حيث هى الألوان ويطلب أن يكون السـواد مثلاً حلواً أو حامضا لكنا مع ذلك لا نخليك عن إشارات نومئ بها إلى ما شاهده من عجائب ذلك المقام على سبيل ضرب المثال لا على سبيل قرع باب الحقيقة إذ لا سبيل إلى التحقيق بما فى ذلك المقام إلا بالوصول إليه.

فأصغ الآن بسمع قلبك وحدق ببصر عقلك إلى ما أشير به إليه لعلك أن تجد منه هدياً يلقيك على جادة الطريق وشرطى عليك أن لا تطالب منى فى هذا الوقت مزيد بيان بالمشافهة على ما أودعه هذه الأوراق، فإن المجال ضيق والتحكم بالألفاظ على أمر ليس من شأنه أن يلفظ به خطر.

فأقـول إنه لما فنى عن ذاته وعن جميـع الذوات ولم ير فى الوجود إلا الواحد الحى القيوم وشاهد ما شاهد ثم عاد إلى ملاحظة الأغيار عندما أفاق من حاله تلك التى هى شبيهة بالسكر خطـر ببالـه أنه لا ذات له يغاير بها ذات الحق تعـالى وأن حقيقة ذاته هى ذات الحق وأن الشـىء الـذى كان يظن أولاً أنه ذاته المغايرة لذات الحق ليس شـيئاً فـى الحقيقة بل ليس شىء إلا ذات الحق وأن ذلك بمنزلة نور الشمس الذى يقع على الأجسام الكثيفة فتراه يظهر فيها.

---

(١) سورة غافر الآية ١٦

فإنه وإن نسب إلى الجسم الذى ظهر فيه فليس هو فى الحقيقة شيئا سوى نور الشمس وإن زال ذلك الجسم زال نوره وبقى نور الشمس بحاله لم ينقص عند حضور ذلك الجسم ولم يزد عند مغيبه.

ومتى حدث جسم يصلح لقبول ذلك النور قبله فإذا عدم الجسم ذلك القبول ولم يكن له معنى وتقوى عنده هذا الظن نما قد كان بان له من أن ذات الحق عز وجل لا تتكثر بوجه من الوجوه وأن علمه بذاته هو ذاته بعينها فلزم عنده من هذا أن من حصل عنده العلم بذاته فقد حصلت عنده ذاته وقد كان حصل عنده العلم فحصلت عنده الذات. وهذه الذات لا تحصل إلا عند ذاتها ونفس حصولها هو الذات فإذن هو الذات بعينها.

وكذلك جميع ذوات المفارقة للمادة بتلك الذات الحقة التى كان يراها أولاً كثيرة وصارت عنده بهذا الظن شيئاً واحداً. وكادت هذه الشبهة ترسخ فى نفسه لولا أن تداركه الله برحمته وتلافاه بهدايته فعلم أن هذه الشبهة إنما ثارت عنده من بقايا ظلمة الأجسام وكدورة المحسوسات فإن الكثير والقليل والواحد والوحدة والجمع والاجتماع والافتراق هى كلها من صفات الأجسام وتلك الذوات المفارقة العارفة بذات الحق عز وجل لبراءتها عن المادة لا يجب أن يقال إنها كثيرة ولا واحدة لأن الكثرة إنما هى مغايرة الذوات بعضها لبعض والوحدة أيضاً لا تكون إلا بالاتصال ولا يفهم شىء من ذلك إلا فى المعانى المركبة المتلبسة بالمادة غير أن العبارة فى هذا الموضع قد تضيق جداً لأنك إن عبرت عن تلك الذوات المفارقة بصيغة الجمع حسب لفظنا هذا أوهم ذلك معنى الكثرة فيها وهى بريئة عن الكثرة وإن أنت عبرت بصيغة الإفراد أوهم ذلك معنى الاتحاد وهو مستحيل عليها وكأنى بمن يقف على هذا الموضع من الخفافيش الذين تظلم الشمس فى أعينهم يتحرك فى سلسلة جنونه ويقول لقد أفرطت فى تدقيقك حتى أنك قد انخلعت عن غريزة العقلاء وأطرحت حكم المعقول فإن من أحكام العقل أن الشىء إما واحد وإما كثير فليتئد فى غلوائه وليكف من غرب لسانه وليتهم نفسه وليعتبر بالعالم المحسوس الخسيس الذى هو بين أطباقه بنحو ما اعتبر به حَىّ بن يقظان حيث كان ينظر فيه بنظر آخر فيراه كثيراً كثرة لا تنحصر ولا تدخل تحت حد ثم ينظر فيه بنظر آخر فيراه واحدا.

وبقى فى ذلك مترددًا ولم يمكنه أن يقطع عليه بأحد الوصفين دون الآخر.

هذا فالعالم المحسوس منشؤه الجمع والإفراد وفيه تفهم حقيقته وفيه الانفصال والاتصال والتحيز والمغايرة والاتفاق والاختلاف فما ظنه بالعالم الآلهى الذى لا يقال فيه كل ولا بعض ولا ينطق فى أمره بلفظ من الألفاظ المسموعة إلا وتوهم فيه شىء على خلاف الحقيقة فلا يعرفه إلا من شاهده ولا تثبت حقيقته إلا عند من حصل فيه.

وأما قوله « حتى انخلعت عن غريزة العقلاء واطرحت حكم المعقول» فنحن نسلم له ذلك

ونتركه مع عقله وعقلائه فإن العقل الذى يعنيه هو وأمثاله إنما هو القوة الناطقة التى تتصفح أشخاص الموجودات المحسوسة وتنتقص منها المعنى الكلى. والعقلاء الذين يعنيهم هم ينظرون بهذا النظر والنمط الذى كلامنا فيه فوق هذا كله فليسد عنه سمعه من لا يعرف سوى المحسوسات وكلياتها وليرجع إلى فريقه الذين ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ (١).

فإن كنت ممن يقتنع بهذا النوع من التلويح والإشارة إلى ما فى العالم الإلهى ولا تحمل ألفاظنا من المعانى على ما جرت العادة بها فى تحميلها إياه فنحن نزيدك شيئاً مما شاهده «حَىّ بن يقظان» فى مقام الصدق الذى تقدم ذكره فنقول:

إنه بعد الاستغراق المحض والفناء التام وحقيقة الوصول شاهد الفلك الأعلى الذى لا جسم له ورأى ذاتا بريئة عن المادة ليست هى ذات الواحد الحق ولا هى نفس الفلك ولا هى غيرهما وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة من المرائى الصقيلة فإنها ليست هى الشمس ولا المرآة ولا هى غيرهما.

ورأى لذات ذلك الفلك المفارقة من الكمال والبهاء والحسن ما يعظم عن أن يوصف بلسان ويدق عن أن يكسى بحرف أو صوت ورآه فى غاية من اللذة والسرور والغبطة والفرح بمشاهدته ذات الحق جل جلاله.

وشاهد أيضا للفلك الذى يلى هو فلك الكواكب الثابتة ذاتا بريئة عن المادة أيضا ليست هى ذات الواحد الحق ولا ذات الفلك الأعلى المفارقة ولا نفسه ولا هى غيرها.

وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة أخرى مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضا من البهاء والحسن واللذة مثل ما رأى لتلك التى للفلك الأعلى.

وشاهد أيضاً للفلك الذى يلى هذا وهو فلك زحل ذاتا مفارقة للمادة ليست هى شيئا من الذوات التى شاهدها قبله ولا هى غيرها وكأنها صورة الشمس التى تظهر فى مرآة قد انعكست إليها الصورة من مرآة مقابلة للشمس ورأى لهذه الذات أيضاً مثل ما رأى لما قبلها من البهاء واللذة.

وما زال يشاهد لكل فلك ذاتا مفارقة بريئة عن المادة ليست هى شيئاً من الذوات التى قبلها ولا هى غيرها وكأنها صورة الشمس التى تنعكس من مرآة على مرآة على رتب مرتبة بحسب ترتيب الأفلاك، وشاهد لكل ذات من هذه الذوات من الحسن والبهاء واللذة والفرح ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر إلى أن انتهى إلى عالم الكون والفساد وهو جميعه حشو فلك القمر.

فرأى له ذاتا بريئة عن المادة ليست شيئاً من الذوات التى شاهدها قبلها ولا هى سواها.

---

(١) سورة الروم الآية ٧

ولهذه الذات سبعون ألف وجه فى كل وجه سبعون ألف فم وفى كل فم سبعون ألف لسان يسبح بها ذات الواحد الحق ويقدسها ويمجدها لا يفتر ورأى لهذه الذات التى توهم فيها الكثرة وليست كثيرة من الكمال واللذة مثل الذى رآه لنا قبلها. وكأن هذه الذات صورة الشمس التى تظهر فى ماء مترجرج قد انعكست إليها الصورة من آخر المرايا التى انتهى إليها الانعكاس على الترتيب المتقدم من المرآة الأولى التى قابلت الشمس بعينها ثم شاهد لنفسه ذاتا مفارقة لو جاز أن تتبعض ذات السبعين ألف وجه لقلنا إنها بعضها.

ولولا أن هذه الذات حدثت بعد أن لم تكن لقلنا إنها هى ولولا اختصاصها ببدنه عند حدوثه لقلنا إنها لم تحدث وشاهد فى هذه الرتبة ذواتا مثل ذاته لأجسام كانت ثم اضمحلت ولأجسام لم تزل معه فى الوجود وهى من الكثرة فى حد بحيث لا تتناهى إن جاز أن يقال لها كثيرة أو هى كلها متحدة إن جاز أن يقال لها واحدة.

ورأى لذاته وتلك الذوات التى فى رتبته من الحسن والبهاء واللذة غير المتناهية (ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر ولا يصفه الواصفون ولا يعقله إلا الواصلون العارفون.

وشاهد ذواتا كثيرة مفارقة للمادة كأنها مرايا صدئة قد ران عليها الخبث وهى مع ذلك مستديرة للمرايا الصقيلة التى ارتسمت فيها صورة الشمس، ومولية عنها بوجوهها ورأى لهذه الذوات من القبح والنقص ما لم يقم قط بباله ورآها فى آلام لا تنقضى وحسرات لا تنمحى قد أحاط بها سرادق العذاب وأحرقتها نار الحجاب ونشرت بمناشير بين الانزعاج والانجذاب وشاهد هنا ذواتا سوى هذه المعذبة تلوح ثم تضمحل وتنعقد ثم تنحل فتثبت فيها وأنعم النظر إليها فرأى هولا عظيماً وخطباً جسيماً وخلقاً حثيثاً وأحكاماً بليغة، وتسوية ونفخاً وإنشاء ونسخاً فما هو إلا أن تثبت قليلاً فعادت إليه حواسه وتنبه من حاله تلك التى كانت شبيهة بالغشى وزلت قدمه عن ذلك المقام ولاح له العالم المحسوس وغاب عنه العالم الإلهى إذ لم يكن اجتماعهما فى حال واحدة كضرتين إن أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى فإن قلت: يظهر مما حكيته من هذه المشاهدة أن الذوات المفارقة إن كانت لجسم دائم الوجود لا يفسد كالأفلاك كانت هى دائمة الوجود وإن كانت لجسم يؤول إلى الفساد كالحيوان الناطق فسدت هى واضمحلت وتلاشت حسبما مثلت به فى مرايا الانعكاس فإن الصورة لا ثبات لها إلا بثبات المرآة فإذا فسدت المرآة صح فساد الصورة واضمحلت هى فأقول لك: ما أسرع ما نسيت العهد وحلت عن الربط ألم نقدم إليك أن مجال العبارة هنا ضيق وأن الألفاظ على كل حال توهم غير الحقيقة وذلك الذى توهمته إنما أوقعك فيه أن جعلت المثال والممثل به على حكم واحد من جميع الوجوه.

ولا ينبغى أن يفعل ذلك فى أصناف المخاطبات المعتادة فكيف ههنا والشمس ونورها وصورتها وتشكلها والمرايا والصور الحاصلة فيها كلها أمور غير مفارقة للأجسام ولا قوام لها

إلا بها وفيها؟ فلذلك افتقرت فى وجودها إليها وبطلت ببطلانها.

وأما الذوات الإلهية والأرواح الربانية فإنها كلها بريئة عن الأجسام ولواحقها ومنزهة غاية التنزية عنها، ولا ارتباط ولا تعلق لها بها، وسواء بالإضافة إليها بطلان الأجسام أو ثبوتها ووجودها أو عدمها وإنما ارتباطها وتعلقها بذات الواحد الحق الموجود الواجب الوجود الذى هو أولها ومبدؤها وسببها وموجدها وهو يعطيها الدوام ويمدها بالبقاء والتسرمد ولا حاجة بها بل الأجسام محتاجة إليها. ولو جاز عدمها لعدمت الأجسام فإنها هى مباديها، كما أنه لو جاز أن تعدم ذات الواحد الحق – تعالى وتقدس عن ذلك لا إله إلا هو – لعدمت هذه الذوات كلها ولعدمت الأجسام ولعدم العالم الحسى بأسره ولم يبق موجود إذ الكل مرتبط بعضه ببعض. والعالم المحسوس وإن كان تابعاً للعالم الإلهى شبيه الظل له والعالم الإلهى مستغن عنه وبرىء منه فإنه مع ذلك يستحيل فرض عدمه إذ هو لا محالة تابع للعالم الإلهى وإنما فساده أن يبدل لا أن يعدم بالجملة وبذلك نطق الكتاب العزيز حيثما وقع هذا المعنى فى تغيير الجبال وتصييرها كالعهن والناس كالفراش وتكوير الشمس والقمر وتفجير البحار يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات.

فهذا القدر هو الذى أمكننى الآن أن أشير إليك به فيما شاهده «حَىّ بن يقظان» فى ذلك المقام الكريم فلا تلتمس الزيادة عليه من جهة الألفاظ فإن ذلك كالمتعذر.

وأما تمام خبره.

فسأتلوه عليك إن شاء الله تعالى وهو أنه لما عاد إلى العالم المحسوس وذلك بعد جولاته حيث جال سئم تكاليف الحياة الدنيا واشتد شوقه إلى الحياة القصوى فجعل يطلب العود إلى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه أولاً حتى وصل إليه بأيسر من السعى الذى وصل به أولاً ودام فيه ثانياً مدة أطول من الأولى.

ثم عاد إلى عالم الحس، ثم تكلف الوصول إلى مقامه بعد ذلك فكان أيسر عليه من الأولى والثانية وكان دوامه أطول ومازال الوصول إلى ذلك المقام الكريم يزيد عليه سهولة والدوام يزيد فيه طولاً بعد مدة حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء ولا ينفصل عنه إلا متى شاء فكان يلازم مقامه ذلك ولا ينثنى عنه إلا لضرورة بدنه التى كان قد قللها حتى كان لا يوجد أقل منها.

وهو فى ذلك كله يتمنى أن يريحه الله عز وجل من كل بدنه الذى يدعوه إلى مفارقة مقامه ذلك فيتخلص إلى لذته تخلصاً دائماً ويبرأ عما يجده من الألم عند الإعراض عن مقامه ذلك إلى ضرورة البدن.

وبقى على حالته تلك حتى أناف على سبعة أسابيع من منشئه وذلك خمسون عاماً. وحينئذ اتفقت له صحبة أبسال وكان من قصته ما يأتى ذكره بعد هذا إن شاء الله تعالى.

ذكروا أن جزيرة قريبة من الجزيرة التى ولد بها «حَىّ بن يقظان» على أحد القولين المختلفين

فـى صفة مبدئه انتقلت إليهـا ملة من الملل الصحيحة المأخوذة عـن بعض الأنبياء المتقدمين صلـوات الله عليهم. وكانت ملة محاكيـة لجميع الموجودات الحقيقية بالأمثال المضروبة التى تعطى خيالات تلك الأشـياء وتثبت رسـومها فى النفوس حسبما جرت به العادة فى مخاطبة الجمهور فمازالت تلك الملة تنتشـر بتلك الجزيـرة وتتقوى وتظهر حتى قام بها ملكها وحمل الناس على التزامها.

وكان قد نشـأ بتلك الجزيرة فتيان من أهل الفضل والرغبة فى الخير يسـمى أحدهما أبسالا والآخر سـلامان[1] فتلقيا تلك الملة وقبلاها أحسـن قبول وأخذا على أنفسـهما بالتزام جميع شرائعها، والمواظبة على جميع أعمالها، واصطحبا على ذلك.

وكانـا يتفقهـان فى بعض الأوقات فيما ورد من ألفاظ تلك الشـريعة فى صفة الله عز وجل وملائكته وصفات المعاد والثواب والعقاب فأما أبسال منهما فكان أشد غوصا على الباطن وأكثر عثـورًا علـى المعانى الروحانية وأطمع فى التأويل وأما سـلامان صاحبه فـكان أكثر احتفاظًا بالظاهر وأشد بعدًا عن التأويل وأوقف عن التصرف والتأمل وكلاهما مجد فى الأعمال الظاهرة ومحاسـبة النفس ومجاهدة الهوى. وكان فى تلك الشـريعة أقوال تحمل على العزلة والانفراد وتدل على أن الفوز والنجاة فيهما وأقوال أخر تحمل على المعاشرة وملازمة الجماعة.

فتعلق أبسال بطلب العزلة ورجع القول فيهما لما كان فى طباعه من دوام الفكرة وملازمة العبرة

---

(١) أصل قصة سلامان وأبسال يونانية. وقد نقلها حنين بن إسحاق إلى العربية، ووضع ابن سينا قصة بهذا الاسم فى هذه الإشارات خلاصتها أن سلامان وأبسال كانا أخوين، وكان أبسال أصغرهما سنا، وقد تربى فى حجر أخيه، فنشأ جميل الصورة، عاقلا، متأدبا عالما عفيفا شجاعا. فعشقته امرأة سلامان. وقالت لزوجها أخلطه بأهلك ليتعلم منه أولادك. فقبل سلامان ذلك، وقال لأخيه: إن امرأتى بمنزلة أمك: فرضى أبسال، وأكرمته زوجة سلامان، فلما اختلت به أظهرت له عشقها، فانقبض أبسال من ذلك. ولما رأت زوجة سلامان ذلك قالت لزوجها، زوج أخاك بأختى، ثم قالت لأختها، إنى ما زوجتك بأبسال ليكون لك زوجا وحدك، بل لأشاركك فيه. وفى ليلة الزفاف جاءت امرأة سلامان بدلا من أختها، وأخذت تعانق أبسالا، وتضم صدره إلى صدرها، فلاح برق فى السماء، أبصر بضوئه وجهها، فخرج من عندها وطلب من أخيه أن يجنده، فولاه قيادة جيشه. وحارب حتى فتح كثيراً من البلاد، ثم رجع إلى وطنه مكللا بالظفر، وهو يحسب أن امرأة أخيه قد نسيته، ولكنها عاودت حبها له ورجعت إلى مغازلته، فأبى ذلك. فتوجه للحرب ثانيا. ولكن امرأة سلامان لما يئست من حبها أوعزت إلى رؤساء الجيش أن يخذلوه، ففعلوا، وظفر به الأعداء، وتركوه طريحا، فعطفت عليه مرضعة من حيوانات الوحش وقد اقتبس هذه الفكرة ابن طفيل فى حىّ بن يقظان، إلى أن انتعش وعوفى، ورجع إلى سلامان فعطف عليه، وعاقب رؤساء الجيش الذين خذلوه، ثم اتفقت زوجة سلامان مع الطابخ والطاعم قدسا إليه السم حتى مات. فاغتم سلامان لذلك واعتزل الملك، وأخذ فى عبادة ربه، فأطلعه الله على حقيقة الأمر، فقعل بالمرأة والطابخ والطاعم ما فعلوا بأخيه، وهو يرمز بهذه القصة إلى أن سلامان هو النفس الناطقة، وأبسالا هو العقل النظرى، وامرأة سلامان هى القوة البدنية الأمارة بالشهوة والغضب، وعشقها لأبسال محاولتها تسخير العقل لها، وإباء أبسال إلى سمو العقل. وأخت امرأة سلامان إلى تظائر القوة البدنية من النورانيات. والبرق اللامع هو الخطفة الإلهية التى تسنح للإنسان من حين إلى آخر، فيحاول الندم، وفتحة للبلاد، رمز إلى الاطلاع النفسى على الملكوت الأعلى. وتغذيه بلبن الوحش رمز إلى الفيضان الإلهى. والطابخ هو القوة الغضبية، والطاعم هو القوة الشهوية، وتواطؤهم على هلاك أبسال رمز إلى محاولة غلبتهم على العقل، وإهلاك سلامان إياهم رمز إلى غلبة النفس على القوى البدنية آخر الأمر، كما أشار إلى ذلك شارح الإشارات. وهى معان نجدها تدور فى حىّ بن يقظان وقصة سلامان وأبسال ورسالة الطير، وكلها لابن سينا.

الغـوص على المعانى. وأكثر ما كان يتأتى له أمله من ذلك بالانفراد. وتعلق سـلامان بملازمة الجماعـة ورجـع القول لما كان فـى طباعه من الجبن عن الفكرة والتصـرف. فكانت ملازمته الجماعة عنده مما يدرأ الوسواس، ويزيل الظنون المعترضة ويعيذ من همزات الشياطين.

وكان اختلافهما فى الرأى سـبب افتراقهما. وكان أبسـال قد سمع عن الجزيرة التى ذكر أن حَـىَّ بن يقظان تكـون بها وعرف ما بها من الخصب والمرافق والهواء المعتدل وأن الانفراد بها يتأتـى لملتمسـه فأجمع على أن يرتحل إليها ويعتزل النـاس بها بقية عمره. فجمع ما كان له من المال واشترى ببعضه مركباً تحمله إلى تلك الجزيرة وفرق باقيه على المساكين وودع صاحبه سلامان وركب متن البحر فحمله الملاحون إلى تلك الجزيرة ووضعوه بساحلها وانفصلوا عنها.

فبقى أبسـال بتلك الجزيرة يعبد الله عز وجل ويعظمه ويقدسـه ويفكر فى أسمائه الحسنى وصفاته العليا فلا ينقطع خاطره ولا تتكدر فكرته. وإذا احتاج إلى الغذاء تناول من ثمرات تلك الجزيرة وصيدها ما يسـد به جوعته وأقام على تلك الحال مدة وهو فى أتم غبطة وأعظم أنس بمناجاة ربه. وكان كل يوم يشـاهد من ألطافه ومزايا تحفه وتيسـيره عليه فى مطلبه وغذائه ما يثبت يقينه ويقر عينه وكان فى تلك المدة «حَىَّ بن يقظان»، شـديد الاسـتغراق فى مقاماته الكريمة فكان لا يبرح مغارته إلا مرة فى الأسبوع لتناول ما سنح من الغذاء فلذلك لم يعثر عليه أبسال بأول وهلة بل كان يتطوف بأكناف تلك الجزيرة ويسبح فى أرجائها فلا يرى إنسيا ولا يشـاهد أثراً فيزيد بذلك أنسـه وتنبسط نفسه لما كان قد عزم عليه من التناهى فى طلب العزلة والانفراد إلى أن اتفق فى بعض تلك الأوقات أن خرج حَىّ بن يقظان لالتماس غذائه وأبسـال قد ألم بتلك الجهة فوقع بصر كل منهما على الآخر.

فأما أبسال فلم يشك أنه من العباد المنقطعين وصل إلى تلك الجزيرة لطلب العزلة عن الناس كما وصل إليها.

فخشى إن هو تعرض له وتعرف به أن يكون ذلك سبباً لفساد حاله وعائقاً بينه وبين أمله. وأمـا حَـىَّ بن يقظان فلم يدر ما هو لأنه لم يره على صورة شـىء من الحيوانات التى كان قد عاينها قبل ذلك وكان عليه مدرعة سـوداء من شـعر وصوف فظن أنها لباس طبيعى. فوقف يتعجب منه مليا.

وولى أبسـال هارباً منه خيفة أن يشـغله عن حاله فاقتفى حَىَّ بـن يقظان أثره لما كان فى طباعه من البحث عن حقائق الأشـياء فلما رآه يشـتد فى الهرب خنس عنه وتوارى له حتى ظن أبسال أنه قد انصرف عنه وتباعد من تلك الجهة فشرع أبسال فى الصلاة والقراءة والدعاء والبكاء والتضرع والتواجد حتى شـغله ذلك عن كل شـىء فجعل حَىَّ بن يقظان يتقرب منه قليلاً وأبسال لا يشعر به حتى دنا منه بحيث يسمع قراءته وتسبيحه ويشاهد خضوعه وبكاءه فسـمع صوتاً حسـناً وحروفاً منظمة. لم يعهد مثلها من شـىء من أصناف الحيوان ونظر إلى

أشـكاله وتخطيطه فرآه على صورته وتبين له أن المدرعة التى عليه ليسـت جلداً طبيعياً وإنما هى لباس متخذ مثل لباسه هو.

ولما رأى حسـن خشـوعه وتضرعه وبكائه لم يشك فى أنه من الذوات العارفة بالحق فتشوق إليه وأراد أن يرى ما عنده وما الذى أوجب بكاءه وتضرعه فزاد فى الدنو منه حتى أحس به أبسال فاشتد فى العدو واشتد حى بن يقظان فى أثره حتى التحق به – لما كان أعطاه الله من قوة والبسطة فى العلم والجسم فالتزمه وقبض عليه ولم يمكنه من البراح.

فلما نظر إليه وهو مكتس بجلود الحيوانات ذوات الأوبار وشعره قد طال حتى جلل كثيرا منه ورأى ما عنده من سـرعة الحضر وقوة البطش ففرق منه فرقاً شـديداً. وجعل يسـتعطفه ويرغـب إليه بـكلام لا يفهمه «حَىَّ بن يقظان» ولا يدرى ما هو غير أنه كان يميز فيه شمائل الجـزع. فكان يؤنسـه بأصوات كان قـد تعلمها من بعض الحيوانات ويجر يده على رأسـه. ويمسح أعطافه ويتملق إليه ويظهر البشر والفرح به حتى سكن جأش أبسال وعلم أنه لا يريد به سوءا وكان أبسال قديماً لمحبته فى علم التأويل قد تعلم أكثر الألسن ومهر فيها فجعل يكلم حَىَّ بن يقظان ويسائله عن شأنه بكل لسان يعلمه ويعالج إفهامه فلا يستطيع وحَىَّ بن يقظان فى ذلك كله يتعجب مما يسمع ولا يدرى ما هو عليه غير أنه يظهر له البشر والقبول.

فاستغرب كل منهما أمر صاحبه.

وكان عند أبسال بقية من زاد كان قد استصحبه من الجزيرة المعمورة فقربه إلى حَىَّ بن يقظان فلـم يـدر ما هو لأنه لم يكن شـاهده قبل ذلك. فأكل منه أبسـال وأشـار إليـه ليأكل ففكر حَىَّ بن يقظان فيما كان عقد على نفسه من الشروط قد تناول الغذاء ولم يدر أصل ذلك الشىء الـذى قدم مـا هو وهل يجوز له تناوله أم لا؟ فامتنع عن الأكل. ولم يزل أبسـال يرغب إليه ويسـتعطفه وقد كان أولع به حَىَّ بن يقظان فخشـى إن دام على اقتناعه يوحشـه فأقدم على ذلك الزاد وأكل منه.

فلما ذاقه واستطابه بدا له سوء ما صنع من نقض عهوده فى شرط الغذاء، وندم على ما فعله وأراد الانفصال عن أبسـال والإقبال على شـأنه من طلب الرجوع إلى مقامه الكريم فلم تتأت له المشاهدة بسرعة. فرأى أن يقيم مع أبسال فى عالم الحس حتى يقف على حقيقة شأنه ولا يبقى فى نفسه هو نزوع إليه وينصرف بعد ذلك إلى مقامه دون أن يشغله شاغل. فالتزم صحبة أبسال.

ولـما رأى أبسـال أيضاً أنه لا يتكلم أمن غوائله علـى دينه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم والدين فيكون له بذلك أعظم أجر وزلفى عند الله. فشرع أبسال فى تعليمه الكلام أولاً بأول كان يشير له إلى أعيان الموجودات وينطق بأسمائها ويكرر ذلك عليه ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالإشارة، حتى علمه الأسماء كلها ودرجة قليلاً قليلاً حتى تكلم فى أقرب مدة.

فجعل أبسـال يسـأله عن شأنه ومن أين صار إلى تلك الجزيرة فأعلمه حَىَّ بن يقظان انه لا

يدرى لنفسه ابتداء ولا أباً ولا أماً أكثر من الظبية التى ربته ووصف له شأنه كله وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى درجة الوصول.

فلما سمع أبسال منه وصف تلك الحقائق والذوات المفارقة لعالم الحس العارفة بذات الحق عز وجل. ووصف له ذات الحق تعالى وجل بأوصافه الحسنى ووصف له ما أمكنه وصفه مما شاهده عند الوصول من لذات الواصلين وآلام المحجوبين لم يشك أبسال فى جميع الأشياء التى وردت فى شريعته من أمر الله عز وجل وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره هى أمثلة هذه التى شاهدها حَىّ بن يقظان فانفتح بصر قلبه وانقدحت نار خاطره وتطابق عنده المعقول والمنقول وقربت عليه طرق التأويل ولم يبق عليه مشكل فى الشرع إلا تبين له ولا مغلق إلا انفتح ولا غامض إلا اتضح وصار من أولى الألباب. وعند ذلك نظر إلى حَىّ بن يقظان بعين التعظيم والتوقير وتحقق عنده أنه من ﴿أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[1].

فالتزم خدمته والاقتداء به والأخذ بإشاراته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية التى كان قد تعلمها فى ملته.

وجعل حَىّ بن يقظان يستفحصه عن أمره وشأنه فجعل أبسال يصف له شأن جزيرته وما فيها من العالم وكيف كانت سيرهم قبل وصول الملة إليهم وكيف هى الآن بعد وصولها إليهم ووصف له جميع ما ورد فى الشريعة من وصف العالم الإلهى والجنة والنار والبعث والنشور والحشر والحساب والميزان والصراط. ففهم حَىّ بن يقظان ذلك كله ولم ير فيه شيئاً على خلاف ما شاهده فى مقامه الكريم. فعلم أن الذى وصف ذلك وجاء به محق فى وصفه، صادق فى قوله رسول عند ربه فآمن به وصدقه وشهد برسالته.

ثم جعل يسأله عما جاء به من الفرائض ووضعه من العبادات، فوصف له الصلاة والزكاة والصيام والحج وما أشبهها من الأعمال الظاهرة، فتلقى ذلك والتزمه وأخذ نفسه بأدائه امتثالاً للأمر الذى صح عنده صدق قائله. إلا أنه بقى فى نفسه أمران كان يتعجب منهما ولا يدرى وجه الحكمة فيهما.

أحدهما: لم ضرب هذا الرسول الأمثال للناس فى أكثر ما وصفه من أمر العالم الإلهى وأضرب عن المكاشفة حتى وقع الناس فى أمر عظيم من التجسيم واعتقاد أشياء فى ذات الحق هو منزه عنها وبرىء منها؟ وكذلك فى أمر الثواب والعقاب.

والأمر الآخر: لم اقتصر على هذه الفرائض ووظائف العبادات وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل والاعتراض عن الحق ؟ وكان رأيه هو أن لا يتناول أحد شيئاً إلا ما يقيم به الرمق وأما الأموال فلم تكن عنده معنى.

---

(١) سورة يونس الآية ٦٢

وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال كالزكاة وتشعبها والبيوع والربا والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ويراه تطويلاً ويقول إن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ولم يكن لأحد اختصاص بمال يسأل عن زكاته أو تقطع الأيدى على سرقته أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة.

وكان الذى أوقعه فى ذلك كله أن الناس كلهم ذوو فطر فائقة وأذهان ثاقبة ونفوس حازمة ولم يكن يدرى ما هم عليه من البلادة والنقص وسوء الرأى وضعف العزم وأنهم كالأنعام بل هم أضل سبيلاً.

فلما اشتد إشفاقه على الناس وطمع أن تكون نجاتهم على يديه حدثت له نية فى الوصول إليهم وإيضاح الحق لديهم وتبيينه لهم ففاوض فى ذلك صاحبه أبسالا وسأله هل تمكنه حيلة فى الوصول إليهم ؟ فأعلمه أبسال بما هم عليه من نقص الفطرة والإعراض عن أمر الله فلم يتأت لهم فهم ذلك وبقى فى نفسه تعلق بما كان قد أمله. وطمع أبسال أن يهدى الله على يديه طائفة من معارفه المريدين الذين كانوا أقرب إلى التخلص من سواهم فساعده على رأيه ورأياً أن يلتزما ساحل البحر ولا يفارقاه ليلاً ولا نهاراً. لعل الله أن يسنى لهم عبور البحر.

فالتزما ذلك وابتهلا إلى الله تعالى بالدعاء أن يهيىء لهما من أمرهما رشداً.

فكان من أمر الله عز وجل أن سفينة فى البحر ضلت مسلكها ودفعتها الرياح وتلاطم الأمواج إلى ساحلها. فلما قربت من البر رأى أهلها الرجلين على الشاطىء. فدنوا منهما فكلمهم أبسال وسألهم أن يحملوهما معهم فأجابوهما إلى ذلك وأدخلوهما السفينة فأرسل الله إليهم ريحا رخاء حملت السفينة فى أقرب مدة إلى الجزيرة التى أملاها.

فنزلا بها ودخلا مدينتها واجتمع أصحاب أبسال به فعرفهم شأن حَىّ بن يقظان فاشتملوا عليه اشتمالاً شديداً وأكبروا أمره واجتمعوا إليه وأعظموه وبجلوه وأعلمه أبسال أن تلك الطائفة هم أقرب إلى الفهم والذكاء من جميع الناس وأنه إن عجز عن تعليمهم فهو عن تعليم الجمهور أعجز.

وكان رأس تلك الجزيرة وكبيرها سلامان وهو صاحب أبسال الذى كان يرى ملازمة الجماعة ويقول بتحريم العزلة فشرع حَىّ بن يقظان فى تعليم وبث أسرار الحكمة إليهم فما هو إلا أن ترقى عن الظاهر قليلاً وأخذ فى وصف ما سبق إلى فهمهم خلافه. فجعلوا ينقبضون عنه وتشمئز نفوسهم مما يأتى به ويتسخطونه فى قلوبهم وإن أظهروا له الرضا فى وجهه إكراماً لغربته فيهم، ومراعاة لحق صاحبهم أبسال.

ومازال حَىّ بن يقظان يستلطفهم ليلاً ونهاراً ويبين لهم الحق سراً وجهاراً فلا يزيدهم ذلك إلا نبوا ونفاراً مع أنهم كانوا محبين للخير راغبين فى الحق إلا أنهم لنقص فطرتهم كانوا لا يطلبون الحق من طريقه ولا يأخذونه بجهة تحقيقه ولا يلتمسونه من بابه بل كانوا لا يريدون معرفته من طريق أربابه فيئس من إصلاحهم وانقطع رجاؤه من صلاحهم لقلة قبولهم.

وتصفح طبقات الناس بعد ذلك فرأى كل حزب بما لديهم فرحون قد اتخذوا إلههم هواهم ومعبودهم شهواتهم وتهالكوا فى جمع حطام الدنيا وألهاهم التكاثر حتى زاروا المقابر لا تنجع فيهم الموعظة ولا تعمل فيهم الكلمة الحسنة ولا يزدادون بالجدل إلا إصراراً. وأما الحكمة فلا سبيل لهم إليها ولاحظ لهم منها قد غمرتهم الجهالة وران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1].

فلما رأى سرادق العذاب قد أحاط بهم وظلمات الحجب قد تغشتهم والكل منهم إلا اليسير لا يتمسكون من ملتهم إلا بالدنيا وقد نبذوا أعمالهم على خفتها وسهولتها وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً وألهاهم عن ذكر الله تعالى التجارة والبيع ولم يخافوا يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار – بأن له وتحقق على القطع أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا تمكن وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشريعة إنما هو فى حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به وأنه لا يفوز منه بالسعادة الأخروية إلا الشاذ النادر وهو من أراد حرث الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن.

وأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى وأى تعب أعظم وشقاوة أطم ممن إذا تصفحت أعماله من وقت انتباهه من نومه إلى حين رجوعه إلى الكرى لا تجد منها شيئاً إلا وهو يلتمس به تحصيل غاية من هذه الأمور المحسوسة الخسيسة إما مال يجمعه أو لذة ينالها أو شهوة يقضيها أو غيظ يتشفى به أوجاه يحرزه أو عمل من أعمال الشرع يتزين أو يدافع عن رقبته وهى كلها ظلمات بعضها فوق بعض فى بحر لجى ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾[2] فلما فهم أحوال الناس وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق علم أن الحكمة كلها والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ووردت به الشريعة لا يمكن غير ذلك ولا يحتمل المزيد عليه فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا﴾[3] فانصرف إلى سلامان وأصحابه فاعتذر عما تكلم به معهم وتبرأ إليهم منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل رأيهم واهتدى بمثل هديهم وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام حدود الشرع والأعمال الظاهرة وقلة الخوض فيما لا يعنيهم والإيمان بالمتشابهات والتسليم لها والإعراض عن البدع والأهواء والاقتداء بالسلف الصالح والترك لمحدثات الأمور وأمرهم بمجانبة ما عليه جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا وحذرهم عنه غاية التحذير وعلم هو وصاحبه أبسال أن هذه الطائفة المريدة القاصرة لا نجاة لها إلا بهذا الطريق وأنها إن رفعت عنه إلى بقاع الاستبصار اختل ما هى عليه ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء

(١) سورة البقرة الآية ٧
(٢) سورة مريم الآية ٧١
(٣) سورة الأحزاب الآية ٦٢

وتذبذبت وانتكست وساءت عاقبتها. وإن هى دامت على ما هى عليه حتى يوافيها اليقين فازت بالأمن وكانت من أصحاب اليمين وأما ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ﴾[1]. فودعاهم وانفصلا عنهم وتلطفا فى العود إلى جزيرتهما حتى يسر الله عز وجل عليهما العبور إليها وطلب حى بن يقظان مقامه الكريم بالنحو الذى طلبه أولاً حتى عاد إليه واقتدى به أبسال حتى قرب منه أو كاد وعبد الله بتلك الجزيرة حتى أتاهما اليقين.

***

هذا أيدنا الله وإياك بروح منه ما كان من نبأ حَىّ بن يقظان وأبسال وسلامان وقد اشتمل على حظ من الكلام لا يوجد فى كتاب ولا يسمع فى معتاد خطاب وهو من العلم المكنون الذى لا يقبله إلا أهل المعرفة بالله ولا يجهله إلا أهل العزة بالله.

وقد خالفنا فيه طريق السلف الصالح فى الضنانة به والشمع عليه إلا أن الذى سهل علينا إفشاء هذا السر وهتك الحجاب ما ظهر فى زماننا من آراء مفسدة نيغت بها متفلسفة العصر وصرحت بها حتى انتشرت فى البلدان وعم ضررها وخشينا على الضعفاء الذين اطرحوا تقليد الأنبياء صلوات الله عليهم وأرادوا تقليد السفهاء والأغبياء أن يظنوا أن تلك الآراء هى المضنون بها على غير أهلها فيزيد بذلك حبهم فيها وولوعهم بها. فرأينا أن نلمع إليهم بطرف من سر الأسرار لنجتذبهم إلى جانب التحقيق ثم نصدهم عن ذلك الطريق ولم نخل مع ذلك ما أودعناه هذه الأوراق اليسيرة من الأسرار عن حجاب رقيق وستر لطيف ينهتك سريعاً لمن هو أهله ويتكاثف لمن لا يستحق تجاوزه حتى لا يتعداه وأنا أسأل إخوانى الواقفين على هذا الكلام أن يقبلوا عذرى فيما تساهلت فى تبيينه وتسامحت فى تثبيته فلم أفعل ذلك إلا لأنى تسنمت شواهق يزل الطرف عن مرآها. وأردت تقريب الكلام فيها على وجه الترغيب والتشويق فى دخول الطريق. وأسأل الله التجاوز والعفو وأن يوردنا من المعرفة به الصفو إنه منعم كريم والسلام عليك أيها الأخ المفترض إسعافه ورحمة الله وبركاته.

---

(١) سورة الواقعة الآية ١٠-١١